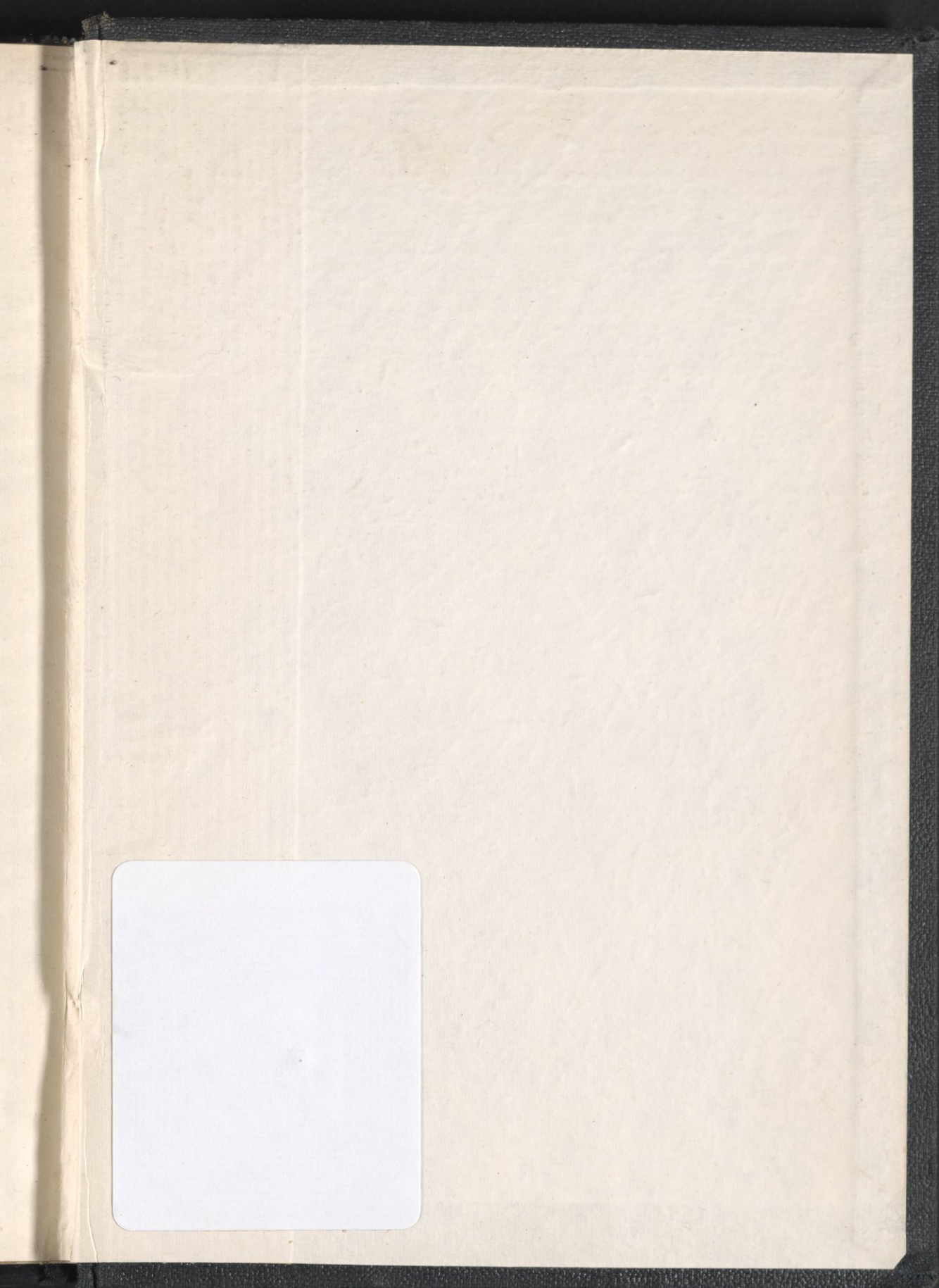


AMERICAN UNIV. IN CAIRO LIBRARY

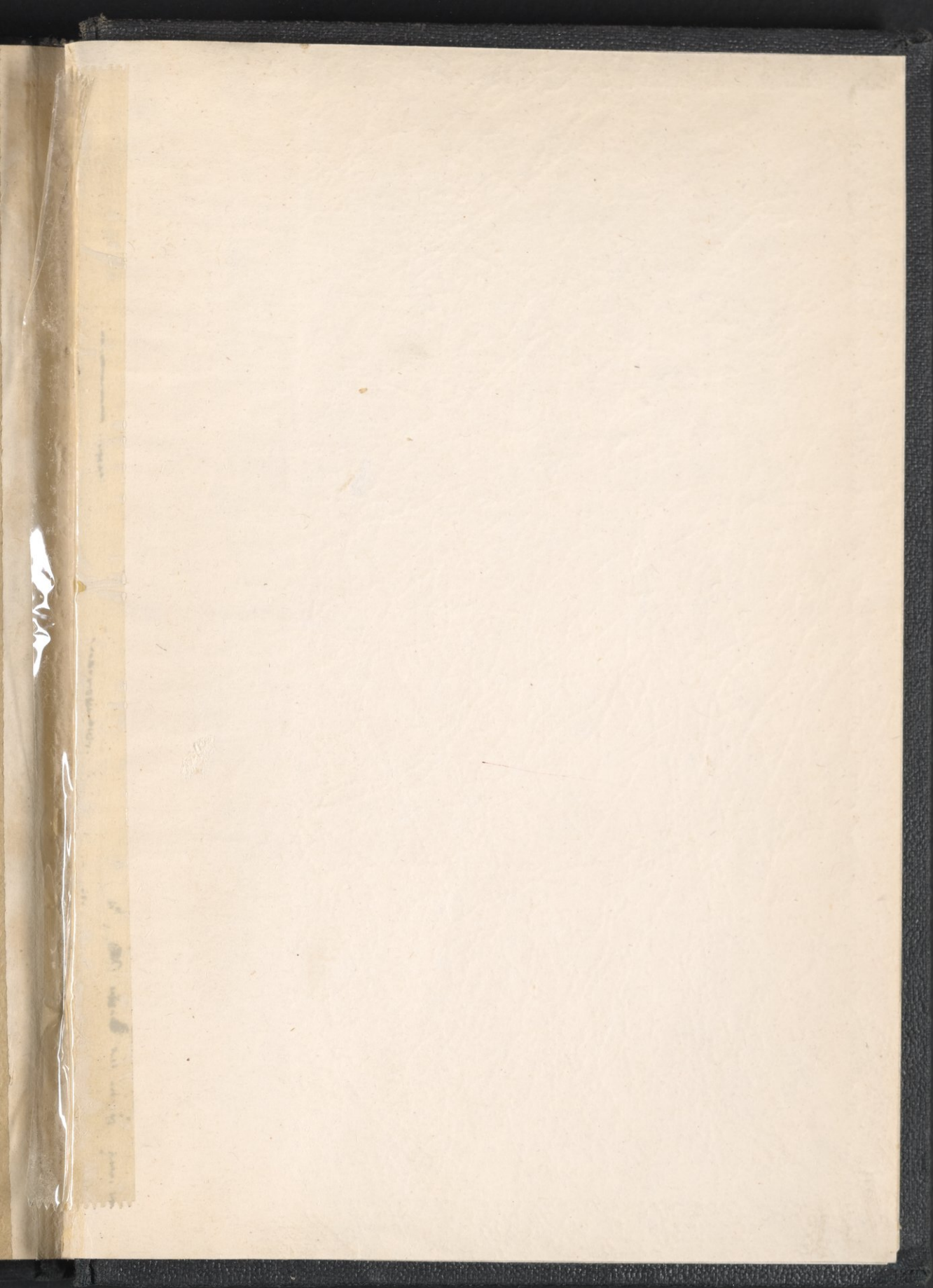


3 8534 01030 6342

37
19



05-B10721



مطبوعات مكتبة النهضة المصرية

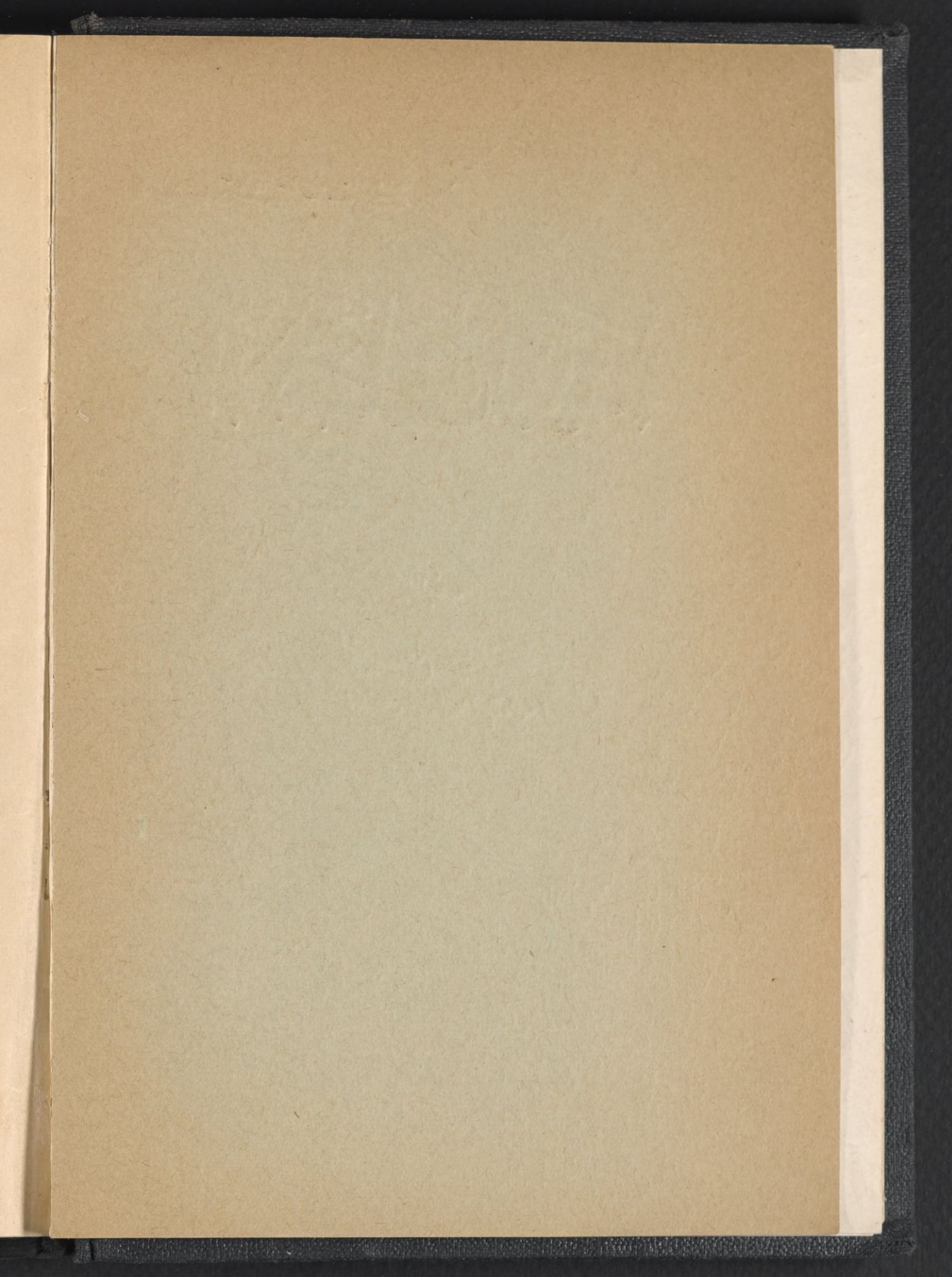
الإنسان قبل البيعة

تأليف

لويس كيندر

ليسانس العلوم العليا قسم الآداب

م . الاعتماد بمصر



GF
33
I85
1936

مطبوعات مكتبة النهضة المصرية

الأنبياء في البيعة

تأليف

لويس كندر

ليسانس المعلمين العليا قسم الآداب

م . الاعتماد بمصر

۵۷۴, ۵

۱۰۱۰۱

۲۴

۵۵۱۹۲

مقدمة

« الانسان والبيئة » بحث في الناحية الاجتماعية من علم الجغرافيا يرمى إلى بيان أثر البيئة في الانسان ومبلغ خضوعه واستكانته لها أو مغالبته إياها . صراع دائم بين قوتين عظيمتين يتوقف عليه تدهور الانسان أو تقدمه .

ولما كانت الناحية الاجتماعية هي أهم نواحي الدراسة الجغرافية لأنها تدور حول الانسان وترمي إلى تبين العلاقة الوثيقة بينه وبين البيئة التي يعيش فيها ، رأيت أن أقصر البحث على هذا الموضوع فقط راجيا أن أملاً بذلك فراغا طالما شعرت بوجوده عند تدريس هذه المادة في السنة الخامسة الأدبية من مرحلة التعليم الثانوى . وقد لاحظت في بحث هذا الموضوع أن يكون شاملا للبيئات الانسانية المقررة على السنة الخامسة الأدبية حسب المنهج القديم كما يكون متبعا لحالة الانسان في مراحل الجمع والصيد والرعى والزراعة والصناعة ، بحيث يطابق منهج القسم الأدبى من السنة التوجيهية حسب النظام الجديد لسنة ١٩٣٧ .

كذلك راعيت في كتابته أن يكون ذا فائدة لطلبة الجامعة المصرية

ومعهد التربية ، وللجمهور المثقف المصرى الذى يعنى بهذه الناحية
من العلم .

على أننى أشعر شعوراً عميقاً بقصورى عن الالمام بأطراف هذا
الموضوع العظيم ، وبعجزى عن تناوله بالدقة التى تتناسب مع أهميته ،
ولذا فأنى ذيلت هذه المقدمة بأسماء بعض المراجع التى استندت
إليها والتى يصح أن يرجع إليها من أراد التوسع فى الموضوع .
وإنى مدين لزميلى الاستاذ محمد على أبودره بالملاحظات القيمة
التي أبدأها ، والانتقادات البريئة التى كان لها أحسن الأثر فى
ظهور الكتاب فى هذا الثوب المتواضع .

لويس الكندر

القاهرة فى أكتوبر سنة ١٩٣٦

مراجع الكتاب

- | | |
|-------------|--|
| SEMPLE | Influence of Geographical Environment. |
| D. FORDE | Habitat, Economy and Society. |
| FAIRGRIEVE | Geography and World Power. |
| M. NEWBIGIN | Man and his Conquest of Nature. |
| L.W. LYDE | Man in Many Lands. |
| SVEN HEDIN | From Pole. to Pole. |
| M. BRIGGS | Economic History of England. |
| HAMMOND | The Rise of Modern Industry. |
| GUIDE | Principles of Political Economy. |
| TREVELYAN | History of England. |
| DR. STAMP | The World. |
| DR. STAMP | An Intermediate Geography. |

Dr. Stamp An Intermediate Geography
 Dr. Stamp The World
 Trevilian History of England
 Guide Principles of Political Economy
 Raymond The Rise of Modern Industry
 M. Binns Economic History of England
 Sven Hedin From Pole to Pole
 L.W. Lyde Man in Many Lands
 M. Newen Man and his Conquest of Nature
 J. Mackinder Geography and World Power
 D. Forster Physical Geography and Society

المحتويات

صفحة

٥

البيئة وأثرها في الانسان

الباب الأول

١٥ الجماعون والصيادون

١٧ الفصل الأول — الجماعون والصيادون في الغابات الاستوائية

٢٦ الفصل الثاني — » » في التندرا

الباب الثاني

٣٧ الرعاة

٣٩ الفصل الأول — رعاة الخيل في سهوب آسيا

٥٠ الفصل الثاني — » الابل في صحراء العرب

٦٠ الفصل الثالث — » الرنة في سيبيريا

الباب الثالث

٧٣ الزراعة

٧٤ الفصل الاول — الزراعة في وادى النيل

الفصل الثانى - الزراعة فى بيرو القديمة

الفصل الثالث - « فى الصين

الباب الرابع

سكان الشواطىء

الفصل الاول - قبائل النوتسكا

فى كولومبيا البريطانية

الفصل الثانى - عرض عام للبحار وآثارها ومشكلاتها

الباب الخامس

قيام الصناعة الحديثة

الفصل الاول - قبل الثورة الصناعية

الفصل الثانى - الانقلاب الصناعى فى انجلترا

الباب السادس

الأقاليم المناخية

البيئة وأثرها في الانسان

الانسان وليد الأرض ، حضنته أمه وغذته ووجهت أفكاره
في اتجاه خاص ، وداعبته بصعاب زادت في قوته وشجنت من
عقله وطرحت أمامه معضلات الملاحاة والزراعة ، ثم همست في أذنه
طريقة التغلب عليها . اختلطت بعظامه وأنسجته وامتلأ بها عقله
وروحه ، فعلى المرتفعات زودت أرجله بعضلات حديدية يتسلق بها
شاهق الجبال ، وعلى شواطئ البحار نفخت في صدره وذراعيه كي
يسيطر على قاربه ومجذافه . وفي وديان الأنهار قيدته بالتربة الخصبة
وأحاطت أفكاره وأطعمه بسياج من الأعمال الهائلة الدقيقة
وحصرت وجهة نظره في مزرعته الخاصة .

أما في المراعى الشاسعة والصحروات القاحلة حيث يتجول
بقطعانه من مرعى إلى مرعى ومن واحة إلى أخرى ، حيث لا يعرف
طعما للراحة ولا يصنعى إلا لنداء الحرية ، حيث أعطته الطبيعة فراغا
طويلا يترك فيه نفسه للتأمل ، فقد اصطبغت أفكاره بالبساطة
المتناهية وأصبحت دياناته التوحيد بالله الفرد الذى لا شريك له ،
كرمال الصحراء وأعشاب السهوب ، كائنات في كل مكان دون

تبدل أو نهاية ، وقد غدى عقله الجائع بهذا المعتقد البسيط طوال
السنين فأضحى إيمانه تعصبا ، وعظمت أفكاره عن البيئة التي
أوجدته فانتشرت في مشارق الأرض ومغاربها .

والحق أن الانسان لا يمكن دراسته دون الأرض التي يفلحها
أو البحار التي يجوبها ، لان للبيئة الأثر الأعظم في تشكيل أعماله وغذائه
وملبسه وأخلاقه ونظرته الدينية وأنظمته الاجتماعية . ولقد قام الصراع بين
الانسان وبيئته منذ القدم ، فهو دائم الجهاد للتغلب عليها واستغلالها
لمصلحته ، فإذا كان مرنا لينا أنشد النغمة التي تحبها وتميل مع
نسيمها وتشكل حسب هواها وبذلك يملك ناصيتها ويقبض على
زمامها ، أما إذا كان صلبا يابس العود اعترض عواصفها فكسرت
وحطمته وبذلك يعيش من الناس الأصلح حسب قانون «بقاء الأصلح»
Survival of the Fittest .

وآثار البيئة في الانسان إما جثمانية أو نفسية أو اقتصادية
 واجتماعية .

الآثار الجثمانية

Physical Effects

تؤثر البيئة في الانسان من الوجهة الجثمانية كما تؤثر في النبات
والحيوان سواء بسواء ، ويضطر الانسان أزاء هذا إلى أن يهيء

نفسه للوسط الذى يعيش فيه ، فاذا لم يفلح فى محاولته أوقضت عليه الظروف بتغيير وسطه تغيراً فجائياً فانه لا محالة منقرض .

فالهنود الذين يعيشون فوق مرتفعات الانديز على ارتفاع ١٠ آلاف إلى ١٥ ألف قدم فوق سطح البحر يتمتعون برئتين قويتين وصدور عريضة ، وذلك لتدخل الهواء على هذا الارتفاع مما أدى بمرور الزمن إلى تقوية ناحية خاصة من الجسم أصبحت متوارثة ، فاذا انحدر هؤلاء إلى السهول تعرضوا للهلاك .

ويعزى قصر قامة السكان فى بعض أجزاء أوروبا كهضبة أوفرن Auvergne فى جنوب فرنسا إلى قلة الموارد الغذائية فى هذا الاقليم ، إذ لوحظ أن أطفال هذه البقعة إذا نقلوا إلى جهات أخرى أكثر رزقا ، كحوض اللوار أو الجارون مثلا ، أصبح نموهم عاديا ، كذلك نجد أن جماعة البشمن Bushmen المشتغلين بالصيد فى صحراء كاهارى أقصر قامة من الهوتنتوت Hottentot الذين يشتغلون بالرعى إلى جوارهم ، كذلك قبائل السامويد واللابس القاطنة فى شمال أوراسيا أقصر من سكان سهوب آسيا لأن الطبيعة المحيطة بهم فقيرة قاسية .

ولقد شوهد أيضا أن قبائل الهيد Haidal والتانجيت Tlingit المشتغلة بصيد الاسماك على سواحل ألaska وكولومبيا البريطانية يتميزون بصدور عريضة وأزرع قوية وسيقان ضعيفة ، لانهم يجلسون الساعات

الطوال في قواربهم ، وبذلك تنمو عضلات النصف الاعلى من
أجسامهم لكثرة مرانها ، وتضعف عضلات النصف الاسفل لركودها
وقد لوحظت هذه الظاهرة أيضاً في سكان جزيرة أرض النار
Tierra del Fuego وجزائر الوشيان .

وتؤثر أشعة الشمس أيضاً في لون البشرة فتزداد السمرة كلما
طال تعرض الإنسان للأشعة ، ولذا نجد سكان الغابات الاستوائية
الكثيفة أقل سواداً من سكان السفانا لقلة تعرضهم لأشعة الشمس
نسبياً . كما نجد سكان الشواطئ في الجهات المدارية أكثر سمرة
من سكان الجهات الداخلية من نفس الأقليم لطول تعرضهم للشمس
في أسفارهم وتنقلاتهم البحرية . ومن الملاحظ أيضاً أن سكان
البوادي أقوياء النظر لاتساع أرجاء بلادهم وكثرة مرانهم على النظر
إلى الأفق البعيد

الاثار النفسية

Psychical Effects

تؤثر البيئة في عقلية الانسان وأخلاقه تأثيراً عظيماً ، ففي
الغابات الاستوائية حيث يتوفر الغذاء من ثمار وحيوان لم تتفق
قوى الانسان العقلية ، فما زال عاجزاً عن الابتكار ، لا يفكر
جدياً في زراعة الارض أو رعى الحيوان ، ولذا أصبح قليل الشأن

في تاريخ الانسانية ، كما امتلأت مخيلته بالخرافات واعتقد بوجود الارواح والخيالات وذلك لوحشة الغابات بظلامها وأخطارها .

أما الرعاة في المراعي المعتدلة والصحروات الحارة فقد ميزهم الترحال والسفر بالشجاعة والاقدام وتحمل الصعاب وإكرام الضيف ، كما أدى اتساع أرجائهم الى إتساع خيالهم وصفاء ذهنهم ولم يجدوا من تعدد المظاهر الطبيعية ما يضطرهم الى تعدد الآلهة فاعتقدوا بآله واحد يفسر لهم مظهرها واحداً ممثلاً في الرمال الشاسعة أو الحشائش البعيدة الأطراف .

كذلك أدى اشتغال الانسان بالزراعة إلى تميزه بصفات الوداعة وحب المسالمة والرغبة عن الهجرة والميل إلى الخضوع للحكام والرؤساء بينما اشتهر سكان الجبال بالميل الى الحرية ، وعدم الخضوع للقوانين وكثرة الثورات التي ترمى إلى قلب نظام الحكم كما في اسبانيا والمكسيك .

وإنك لترى أثر البيئة ممثلاً أحسن تمثيل في سكان الشواطئ الذين عودهم ركوب البحر وتحمل الصعاب ومواجهة الأخطار وحب الهجرة ، ولذا كان للأمم البحرية من فينيقيين وإغريق وهولنديين وإنجليز شأن عظيم في الكشف الجغرافي والاستعمار والتجارة الدولية في العصور المختلفة .

كذلك أدى الاشتغال بالصناعة الى شراسة أخلاق العمال

وغلظة طباعهم وكرههم لأصحاب الأموال، وتسرب أفكار الاشتراكية بينهم، كما أدى الى انخفاض قيمة الأديان بحيث أصبحت المعتقدات الدينية واهية واقتصر الناس على قشور الدين دون لبه ومظهره دون جوهره، غير أنها بعثت في القوم الثقة بالنفس والميل إلى الاستقلال وحرية الرأي.

الاثار الاقتصادية والاجتماعية

Economical and Social Effects

تتحكم ظروف البيئة في التقدم الاقتصادي والاجتماعي للإنسان، فالشاهد أن المشتغلين بالصيد أو الجمع قلما يقيمون طويلا في بقعة واحدة، وبذلك لا يمكنهم أن يعرفوا معنى للوطن كما أن الرابطة بين أفراد أسرهم تكون واهية لأن كل فرد يسعى إلى الحصول على رزقه دون التفكير في الآخرين، وبذلك لا يستطيع هؤلاء أن يكونوا من أنفسهم قبائل قوية مستقرة.

أما سكان الشواطئ الذين يعيشون على صيد الأسماك فانهم يجدون من وفرة الرزق ما يغنيهم عن التجول الدائم، وبذلك يعيشون في أسر قوية تكون في مجموعها قبائل تعيش في قري ذات منازل ثابتة مستقرة. كذلك يكون رعاة الخيل في سهوب آسيا والابل في الصحراء الكبرى وصحراء العرب قبائل قوية لها رؤساء يتمتعون بسلطة تشريعية وتنفيذية واسعة.

كما أن أفراد الأسرة الواحدة بينهم يشعرون بقوة العصبية ويتبادلون المحبة والعطف .

أما البيئة الزراعية كثيرة الخيرات ، فانها تسمح بكثرة عدد السكان وتستلزم ارتباط الأسرة ، وتحتم قيام حكومة منظمة تسهر على مصالح الناس وتقوم بالمشروعات التي ترمي الى تحسين الري والزراعة .

كذلك تؤثر البيئة في مركز المرأة في الهيئة الاجتماعية ، إذ يلاحظ أن المرأة إذا كان نصيبها من العمل أقل من نصيب الرجل قلت مكانتها الاجتماعية كما في البيئة الرعوية والزراعية أما إذ شعر الرجل بأنها تقوم بمثل عمله وتحمل مثل مسؤوليته فانه يحترمها ويعترف بحقوقها كما في البيئة البحرية والصناعية .

وهكذا نرى البيئة تتحكم في كل مظهر من مظاهر الحياة وتسيطر على كل عمل من أعمال الانسان .

ويلاحظ أن تغيير الوسط وما يتبعه من تغيير الحالة الاقتصادية يؤثر الى حد بعيد في عادات الناس وأساليب حياتهم، فرعاة المغول والأريون الذين انحدروا من مرتفعات آسيا المجذبة إلى سهول الكنج والسند في الهند اتخذوا الزراعة مهنة لهم ، وخلدوا الى الراحة والكسل وفقدوا روح الترحال والمغامرة التي كانوا يتمتعون بها حين اشتغالهم

بالرعى وأصبحوا سادة القوم يحكمون الملايين من الناس .
كذلك عند ما سكن العرب في مدن اسبانيا العظيمة وذهب
عنهم شبح الفاقة الذي كان يهدد حياتهم في بادية العرب اشتغلوا
بالزراعة وسكنوا القصور الفخمة واقتنوا العبيد والخدم فأفقدتهم
النعمة الحادثة تلك الروح الجريئة التي كانوا يفاخرون بها ، والتي
كانت من أهم الأسباب في انتشار فتوحاتهم وتكوين امبراطوريتهم .
وهذا الترف الذي ساد حياتهم وما أعقبه من خمول يفسر
لنا فشلهم في الاحتفاظ بملكهم طويلا في أسبانيا .

الباب الأول

الجماعون والصيادون

Food-Gatherers and Hunters

الغابات الاستوائية والتندرا

مقدمة

لا تزال الغابات الاستوائية الكثيفة المظلمة الخافتة بالأسرار الغامضة تطوى في بطونها السحيقة جماعات تعيش على جمع الثمار والصيد كالإنسان الأول ، كما أن التندرا الجليدية التي تتوج أطراف القارات الشمالية ما فتئت موطناً لأقوام على الفطرة الأولى لا يسمون كثيراً عن مستوى ساكني الكهوف في الأحقاب الخالية . ولعل الطبيعة قد بسطت يدها للنوع الأول من الإنسان فأسبغت عليه خمولا أقعده عن العمل ، وقبضتها عن النوع الثاني فخلفت عنده اليأس من التقدم ، وفي كلتا الحالتين ظل الإنسان راكداً ذهن قليل الشأن يحزو حذو الجد الأول ، في مأكله وملبسه ودقائق حياته . أو هو حائر يتردد بينما وصل ركب العالم إلى عصر السرعة والكهرباء !

وسندرس هنا أمثلة لتلك الجماعات التي لم ترق بعد إلا الدرجات الأولى من سلم المدنية الحديثة مبينين ما للبيئة من أثر في حياة الإنسان .

الفصل الأول

الجماعون والصيادون في الغابات الاستوائية

تقع الغابات الاستوائية في المنطقة المحدودة بخط عرض صفر و ١٠° شمالا وجنوبا من خط الاستواء وأهمها غابات الكونغو في أفريقيا والامزون في أمريكا الجنوبية وجزائر الهند الشرقية والملايو في جنوب آسيا .

وتتميز هذه الغابات بغزارة أمطارها في الربيع والخريف وقلتها في الصيف والشتاء ، ودرجة الحرارة فيها مرتفعة على مدار السنة وقلما تنخفض عن ٨٠° ف ولذا كان الفرق الفصلي معدوما تقريبا .

وتتوفر في الغابات الاستوائية عوامل نمو النبات وهي الحرارة والماء ، ولذا كان نموه هناك سريعا وكانت الأشجار ضخمة مرتفعة مشتبكة الأغصان لا يكاد ضوء الشمس ينفذ خلالها إلى داخل الغابة وقد أدى الصراع على الحياة إلى كثرة وجود النباتات المتسلقة التي تلتف حول غيرها ساعية إلى الضوء فوق أطراف الأشجار الأخرى .

وأهم حيوان تلك الغابات القردة والشعايبين ، كما يعيش على أطرافها النمر والأسد والفيل وغيرها من الحيوان المفترس ، وتكثر

في أغصان أشجارها الطيور ذات الألوان الجميلة التي تتمثل
فيها ألوان الزهور والنباتات الاستوائية الرائعة .

وتتقطن الغابات الاستوائية جماعات منحة ذات لون أسود
ضارب إلى الصفرة نذكر من بينها جماعة Fan في الكنفو
و Semang في الملايو .

« الفان » في الكنفو The Fan

كان غنى الطبيعة في الغابات الاستوائية سببا في سهولة
الحصول على الرزق وإذا بحثنا أعمال رجال هذه الجماعه وجدناها
تنحصر في جمع الفاكهة أو صيد الأسماك والحيوانات الصغيرة
أو قطع الأشجار لبناء الأكواخ الصغيرة . أما النساء فيقمن
بتحضير الطعام وتجفيف الأسماك والفواكه واللحوم .

وينحصر غذاء القوم في أكل الفاكهة والأسماك وبعض
النباتات . أما الفاكهة فمعظمها ينضج في شهر فبراير فيقومون
ببعض رحلات قصيرة إلى مواطن الفواكه حيث يبنى الرجال
معسكرا مؤقتا وتقوم النساء بجمع الفاكهة وطبخها وتجفيف بعضها
بقدر ما تسمح به معلوماتهن الضئيلة ومواردهن القليلة . أما الأسماك
فإنها تكثر في فصل الصيف أي عند ما يقل المطر فينضب ماء
البحيرات والأنهار الصغيرة وعندئذ يسهل صيد السمك الذي
يصبح غذاءهم الرئيسي طوال مدة وجوده ، كما أن النساء تجففه

الغذاء

و تحفظه للمستقبل لاستعماله إذا شحت موارد الرزق الأخرى .
أما الحيوانات فقلما يمكنهم الحصول عليها إلا في الفصل المطير
حينما يتمكن القوم من الاحتيال على صيدها إذ يتعذر السير على
الكثير منها فيحصرونها في جهات خاصة حيث يحفرون لها
حفرا تتردى فيها فيذبجونها ويحففون الكثير من لحمها لحفظه
لوقت الحاجة .

ويلاحظ مما سبق أن غذاء القوم ليس مستقراً ولذا اضطرت الزراعة
هذه الجماعات وأماها إلى الالتجاء إلى الزراعة في أبسط أشكالها .
ولكل منها مزرعة خاصة بها . وتبدأ عملية الزراعة بأن يقوم
الرجال بتطهير الأرض وقطع الأشجار الضخمة ، وذلك في فصل
الجفاف ثم يحرقون الأعشاب لتسميد الأرض ، وعندئذ ينتهي
عمل الرجال ويقوم النساء بدورهن بزراعة الموز والمانيوك والأذرة
ثم ترويهما الأمطار طوال العام . ويلاحظ أن هذه المزرعة لا تدوم
أكثر من سنتين لأن الغابة تغطي عليها فيضطر السكان إلى
إنشاء مزرعة أخرى جديدة ولذا فإنهم يبتعدون دائماً عن موطنهم
الأصلي ويؤدي ذلك في النهاية إلى الهجرة إلى قرية جديدة
تكون قريبة من المزرعة الحديثة . وفي الكثير من الأحيان تكون
الهجرة بسبب انتشار مرض وبائي يحدث تشاؤماً في أفكار القوم ،
أو بسبب غارة بعض الحيوانات المفترسة كالفيلة . وفي حالة

التنقل
والهجرة

الهجرة يترك الرجال الأشداء القرية أولاً باحثين عن مكان آخر
يصلح لتشييد القرية الجديدة حتى إذا تم لهم بناء المساكن
هاجرت النساء والأطفال حاملات الأواني والأثاث والحاجيات ،
ولذا فقلما تدوم القرية أكثر من خمس سنوات .

وتبنى الكواخ القرية من الأخشاب الوفيرة في صفيين القرية
مقابلين أو في دوائر ، وفي مقدم القرية كوخ كبير يجتمع فيه
رجال الجماعة ، ويستقبلون فيه الغرباء ، كما يعتبر مكاناً للحراسة .
ولكل كوخ باب خلفي ينفذ إلى قطعة من الأرض تستعمل لجلوس
النساء وطهي الطعام وبها يزرعون القليل من الموز والبطاطة وهذه
تسد حاجة الأهليين إذا تعذر عليهم الصيد وقتاً ما . وتقطن
بعض الجماعات في الغابات الاستوائية الكواخاً معلقة على أغصان
الأشجار خشية الحيوان المفترس وهؤلاء أحط من غيرهم .

ويكاد ملبس الجميع يقتصر على مايستر العورة ، والكثير
منهم لا يلبسون شيئاً مطلقاً .

ولقد أدى غنى الطبيعة في الغابات الاستوائية وسهولة الحصول
على الرزق وتشابه أيام السنة إلى انحطاط القوى الفكرية بين
السكان وكسلهم وعجزهم عن الابتكار ولذا لا يجمعون عن قطع
الأشجار للحصول على فاكهتها ولا يفكرون في استنباتها ، كما يقتلون
الحيوان دون التفكير في رعيه ، ولا يترددون في تسميم المجارى

المائية للحصول على أسماكها، ولا يفكرون في تهيئة الأرض للزراعة
بصفة دائمة بل يتركونها بعد فترة قليلة إلى غيرها، وهكذا تجدهم
يفسدون الوسط الذي يعيشون فيه ويقتلون من صلاحيته للحياة .
ومن المشاهد أنه إذا ازدادت عزلة الجماعة عن العالم ، وقل
احتكاكها بغيرها، كان ذلك داعياً إلى شدة تأخرها وتدهورها .
والواقع أن أقزام غابات الكونغو (The Pygmies) لا
يتميزون كثيراً عن الحيوانات في مستواهم العقلي فلا يفكرون
في شيء ، ويتناسلون كأحط أنواع الحيوانات وليس للعفاف عندهم
قيمة وهم غلاظ القلوب لا يرحمون غيرهم ممن يقع في أيديهم .

ولوحشة الغابات وظلمتها ووعورة مسالكها وكثرة حيوانها
المفترس أثر في تكيف معتقداتهم الدينية ، فهم يعتقدون بوجود
الأرواح في الفضاء ، والسحر . والخزعبلات منتشرة بينهم ، ولذا
يقدمون الهدايا والقرايين للأرواح الخفية خشية بطشها .

الرابطة
العائلية

والرابطة العائلية عندهم مفككة جداً لعدم الاستقرار وليس
هناك عطف كبير بين أفراد الأسرة ولذا لم تؤد هذه الحالة إلى
قيام حكومة أو وجود قانون يخضعون له . ولا هم لهم إلا إشباع
غرائزهم من أي طريق غير متبعين في ذلك أنظمة أو
قواعد مرعية .

«السيمانج» في الملايو The Semang

ننتقل الآن إلى دراسة جماعة أكثر تأخراً وتدهوراً وهي جماعة السيمانج في الجهات الجبلية من الممتلكات البريطانية في شبه جزيرة الملايو . وهم زنوج قصار القامة لا يكاد يبلغ طول الرجل منهم خمسة أقدام وتقل المرأة عن ذلك كثيراً وبشرتهم سوداء ضاربة إلى الصفرة ويتميزون بشفاة مفرطة وعيون نفاذة وشفاة غليظة وشعر مجعد ملتو ولا تنمو لهم لحى وهم في هذه الملامح يشبهون كثيراً زنوج أفريقيا ، والجميع يطلق عليهم علمياً اسم Negritos.

والسيمانج لا يعرفون الزراعة مطلقاً ، وليس لهم حيوان مستأنس . ولذا يعيشون على جمع الثمار فقط . وقد أدى ذلك إلى تنقلهم وقلة عدد جماعاتهم . أذ قلما تزيد الجماعة الواحدة عن ثلاثين شخصاً .

ولكل جماعة من هؤلاء قطعة من الأرض لا تزيد عن عشرين ميلاً مربعاً . توارثوها بمرور الزمن وأصبحت تبعاً للعرف والتقاليد ملكاً لهم دون غيرهم . ولهم وحدهم حق اقتناء فاكهتها ولو أن لكل الجماعات حق الصيد وأكل جذور النبات في أى مكان ، ولبطء انتقال هذه الجماعات كان احتكاكهم بغيرهم ضئيلاً إلا في حيز ضيق حيث تتعارف جماعتان أو ثلاث ، وتصبح لهم

الجنس

الجماعة

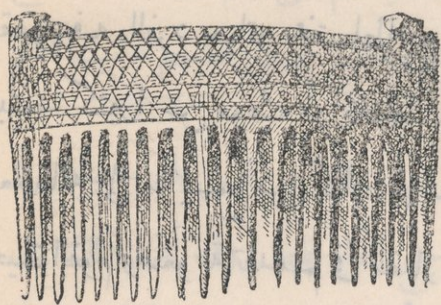
لهجة كلامية مفهومة لدى الجميع ، ويسود بينهم إلى حد بسيط
شعور الجماعة Some Sense of Community . غير أننا
لا يمكننا أن نطلق عليهم اسم قبيلة لأنهم لا يتبعون أنظمة خاصة
في حياتهم ، وقلما تربط لغة واحدة أكثر من جماعتين أو ثلاث.
وعندما يبلغ الفرد منهم الثامنة عشرة يختار زوجة له من جماعة
تدهور العقلية مجاورة ويعيش مع أهل زوجته سنتين أو ثلاث ثم يعود إلى
عشيرته . ومن الصعب علينا أن نتصور ذلك الحيز الضيق الذي
يقضى فيه الفرد حياته مختلطاً مع أفراد قلائل من أهله وقلما
يبتعد كثيراً عن موطنه أو يختلط بالأجانب ، ولذا اقتصرت
معلوماته على ما يسمع من كبار الجماعة وهذا يفسر لنا بطء تغير
حياة القوم وصعوبة تقدمهم في مضمار المدنية

وينحصر غذاء هذه الجماعات في الثمار والجنود وتحملها الغناء
النساء في سلال مصنوعة من أشجار الخيزران وقلما يهتم القوم
يحفظ الفاكهة أو أى نوع من الطعام لوقت الحاجة .
ولذا نجدهم دائمى الجمع ، وفي بعض الأوقات يصيدون
الحيوانات الصغيرة كالفيران والطيور والقرود ، ويستعملون في
صيدها العصي ذات الأطراف المدببة الصلبة ، والأقواس ذات
السهم المسمومة . ولهم طريقة بسيطة في صيد الطيور ، يضعون
مادة لزجة على ألواح من الخيزران ، حتى إذا حط الطير عليها

التصق بها . ويصيدون الأسماك الصغيرة من المجارى المائية
 خصوصاً وقت انخفاض الماء بها غير أنهم لا يسممون الماء كما
 يفعل «الفان» "The Fan" في الكنفو كما قدمنا . وبالرغم من
 كثرة عبورهم للأنهار ، لا نجد لهم إلا أطوافا Rafts من
 الخيزران وهذا يدل على مبلغ قصورهم عن الابتكار ورغبتهم عن
 أعمال الفكر .

ولا يختلفون في ملبسهم عن غيرهم من سكان الغابات

الملبس



الاستوائية إذ يكتفون
 بتغطية العورة بأوراق
 الأشجار أو جلود الحيوان
 وتلبس النساء أحياناً
 أمشاطاً من أشجار الخيزران
 للزينة فقط .

مشط نساء

ومن العرض السابق لحالة الانسان في الغابات الاستوائية
 نستنتج أن ساكن تلك الغابات يجد من غنى الطبيعة ما يصرف
 ذهنه عن بذل مجهود للحصول على طعامه : أمامه ثمار كثيرة
 تنمو دون غرس ، وإلى جانبه قنوات ومستنقعات غاصة
 بالأسماك يصيدها دون مجهود ، وفي متناول يده الكثير من
 الحيوانات الصغيرة يقتنصها على مهل . وبذا خمدت فيه روح
 العمل وقل إنتاجه وأصبح عالة على الطبيعة الغنية المحيطة به ،

غنى الطبيعة

وهذا أكبر عامل في تأخره وبقائه حتى الآن في مستوى لا يزيد كثيراً عن مستوى رفاقه من حيوانات المنطقة .

وهناك ظاهرة أخرى يمكن ملاحظتها في تلك الأصقاع ، تشابه الأيام ظاهرة لا تقل أهمية عن السابقة كانت بدورها داعية إلى ركود ذهن تلك الجماعات وتأخرها ، تلك هي تشابه أيام السنة دون تبدل في المناخ . فالحياة في الغابات الاستوائية على وتيرة واحدة ، قلما يختلف يوم عن سابقه ولذا لا يتعدى تفكير الإنسان هناك إلى غده ، وهو في ذلك يخالف الإنسان في العروض المعتدلة ، حيث تختلف فصول السنة ، فهناك الفصل الجاف والمطير والمناخ الحار والمعتدل ، مما يستلزم التفكير واليقظة والعمل للمستقبل ، فيزرع الإنسان في وقت ويحني الثمار في وقت آخر ، ويقتصد في فصل الرخاء ما يسد أوده في فصل الجذب ، أي أنه يقوم بعمل يعود عليه بفائدة محسوسة تشجعه دائماً على مضاعفة الجهد لتضعيف الإنتاج ، وفي ذلك اضطراب التقدم والرقى . ولذا ففي الوقت الذي كان العالم أجمع يتخبط في دياجير الهمجية كان بدهياً أن يعيش في العروض المعتدلة إنسان أقل همجية من ساكن الغابات الاستوائية الذي عجز عن مقاومة الطبيعة أو استغلالها لمصلحته وأورثه المناخ الحار عجزاً أقعده إلى العصر الحاضر عن إظهار شخصيته ، فأصبح كمية مهمة في عناصر الحياة .

الفصل الثاني

الجماعون والصيادون في التندرا

التندرا والآن ننتقل بالقارىء إلى مسرح آخر من مسارح الحياة ، تلعب عليه الطبيعة دور الشحيح البخيل فتقبض يدها عن الإنسان قبضا يكاد يقتله ، فيستنفد كل مجهوده ليستخلص من الطبيعة المجذبة القاسية ما يكفيه شطف العيش وبذا يظل أبد الدهر شاردا هائما . ذلك المسرح هو الأصقاع الشمالية دائمة البرودة التي يطلق عليها اسم تندرا Tundra . ولنبدأ بدراسة إحدى الجماعات المشتغلة بالصيد في شمال شرق سيبيريا .

اليوكاغير The Yukaghir

تقطن هذه الجماعات حوض نهر كولما Kolyma الادنى في شمال جبال فركو يانسك واستانوفوى .

المناخ وهذه الأصقاع شديد البرودة بحيث تتجمد مياه الأنهار ثمانية أشهر في السنة ، وتنخفض درجة الحرارة في الشتاء إلى أكثر من ٦٠° ف تحت درجة التجمد ، وبذا تصير هذه البقاع صحراوات جليدية بيضاء لا أثر للنبت فيها ، وتكاد تنعدم

فيها معالم الحياة ، حتى إذا قارب الصيف بدأت تدوب الثلوج
فتتحول الأراضي إلى مستنقعات وتكثر المجارى المائية وتنمو
بعض النباتات والأعشاب القصيرة والطحالب التي يعيش عليها
غزال الرنة .

غزال
الرنة

وهو أعظم حيوانات هذه المنطقة فائدة للجماعات القاطنة
فيها ، فهو مصدر غذائهم وملبسهم وينتقل إلى الغابات الصنوبرية
في الشتاء هرباً من الثلج حيث يعيش على النباتات القليلة
التي تغطيها طبقة رقيقة من الجليد في استطاعته أن يفتتها بحافره
الصلب ، ثم يترك هذا المأوى في الصيف إلى الشمال هرباً من
الناموس المنتشر وسعياً وراء العشب الذي يكثر إذ ذاك في
التندرا بعد ذوبان الجليد . ويوجد من الحيوانات في تلك الأصقاع
عدا غزال الرنة الأرنب القطبي والوعل والكلب كما تكثر
الأسماك في الأنهار في فصل الصيف .

الجنس

واليوكا غير من الجنس المغولى وهم قصار القامة ذوو
وجوه ضيقة مفرطحة وتميل بشرتهم إلى اللون الأصفر وشعرهم
خشن مستقيم .

الملبس

ويلبسون أغطية من جلود الرنة تصل إلى الركبة ، وفي الشتاء
يلبسون أكثر من رداء واحد تغطيه فروة الحيوان ، كما يلبسون

في أرجلهم أحذية جلدية طويلة اتقاء البرد .

الجماعة ولا يزيد عدد الجماعة الواحدة عن مائة شخص يملكون

قطعة خاصة من الأرض يصيدون فيها بحيث لا يعتدون على

ممتلكات غيرهم ، وهم يتنقلون في فصل الشتاء في الغابات

الجنوبية على زحافات من الخشب لا يزيد طول الواحدة منها على

خمسة أقدام تجرها الكلاب الأليفة ، حيث يصيدون غزال

الرنة والوعول . أما في الصيف حين تندوب الثلوج فينتقلون في

قوارب مصنوعة من جذوع الأشجار إلى التندرا حيث يصيدون

البط المائي والأسماك الكثيرة التي يجففونها ويأكلونها في فصل

الشتاء الطويل .

المسكن وهم خلال السنة يسكنون في خيام من جلود الرنة ذات شكل



معسكر صيغ الجماعة اليوكاغير

مخروطى ويغطى أسفل الخيام فى الشتاء بطبقة من الجليد للدفء .

ويرأس هذه الجماعات أقدر الرجال ، وله سلطة واسعة على الرئيس أفراد الجماعة ، فهو الذي ينتخب أما كن الصيد ويعطى لكل فريق بقعة خاصة ، ويرسل الصيادين فى جهات معينة للصيد ، ويعين مكان اللقاء عندما تتفرق الجماعات للصيد وجمع النبات وهو الذى يتسلم من الصيادين ما حصلوا عليه ، فتوزعه زوجته على الأسر المختلفة ، كما أنه يرأس احتفالاتهم وولائمهم ، ويتحتم عليه أن يكون شجاعا مقداما لا يبالى بالأخطار . وكثيرا ما تعقد الجماعات فى فصل الصيف احتفالات يلعبون فيها العابا مختلفة يظهرون فيها قوتهم الجثمانية ، كما يقوم رجال السحر ويسمون Shamans ببعض الألعاب السحرية . وهم الذين يطردون أرواح الموتى من الخيام بعد موتهم ، إذ يأتى الرجل منهم فى لباس غريب ، ومعه طبلة لها دوى مخيف ، ثم يبدأ فى الرقص السريع ويدور حول نفسه دورات مزعجة ، حتى إذا ما انتهى من الرقص قرع الطبل قرعا مروعا حتى تخرج الروح من الخيمة .

وتكاد هذه الجماعة تنقرض الآن ، فإن أغلب أفرادها ينضمون إلى القبائل المشتغلة بالرعى إلى الجنوب منهم ، غير أن

اليوكاغير يمثلون بحق تلك الجماعات التي تعيش على الجمع في أصقاع
قاسية المناخ إلى درجة تكاد تتعذر فيها الحياة .

والآن ندرس جهات أخرى شبيهة بهذه تقطنها جماعات
مماثلة ونرى صورة أخرى من الحياة في الأصقاع القطبية لتبين
مبلغ التشابه في مؤثرات البيئة المحيطة بالإنسان . هذه الجماعات هي :

الاسكيمو The Eskimo

هي جماعات متشابهة في العادات واللغة والمظهر والجنس
متجانسة الحضارة منتشرة في شمال أمريكا الشمالية من جرينلاند
إلى مضيق « برنج » ويشبهون المغول الساكنين في شمال شرق
سيبيريا في قصر القامة وتقرطح الوجه وخشونة الشعر وسواده
ويظن كثير من العلماء أنهم هاجروا من شمال آسيا إلى موطنهم
الحالي عن طريق مضيق « برنج » منذ أكثر من ألفي عام، مستنديين
في ذلك إلى تشابه آلات الصيد والقوارب والملابس عند الأسكيمو
ومغول شمال شرق سيبيريا ويظن البعض الآخر أن الأسكيمو
يرجعون إلى جنس كان يسكن في شمال كندا وهاجر إلى الأصقاع
الشمالية ثم كيف نفسه حسب ظروف بيئته الجديدة ، ويدعمون
هذا الرأي بتشابه جنسي بين بعض قبائل الأسكيمو وبعض

الجنس

قبائل الهنود الساكنين على حدود التندرا إلى جنوبهم .

ويمضى الاسكيمو وقت الشتاء قرب الشواطئ لصيد
الصيد حيوان عجل البحر (Seal) وهو أعظم الحيوانات فائدة للاسكيمو ،
ويعيش هذا الحيوان في الشتاء تحت طبقات الجليد التي
يحفر فيها حفراً صغيرة يستنشق منها الهواء بين آن وآخر
ويتربص به الاسكيمو عن قرب وبأيديهم خطاطيفهم الطويلة
Harpoons حتى إذا استدلوا على وجوده تحت إحدى الحفر
قذفوه بحراهم بمهارة فائقة وأخرجوه منها .

أما في الربيع حين يكثر هذا الحيوان على الشواطئ فيتمكن
الاسكيمو من صيده بسهولة وفي كميات وفيرة . وكذلك
يصطادون الحيتان في قواربهم الصغيرة المسماة Kayaks أما في
فصل الصيف حين تذوب الثلوج وتنمو النباتات والطحالب
القصيرة ، فان حيوان الكاريبو Caribou وغزال الرنة تنقل
إلى الشمال فيوجه الاسكيمو جهودهم إلى صيدها في جماعات ، اذ
يتربصون بها ويدفعونها إلى بعض البحيرات الصغيرة حيث
يختبئ الرجال في قواربهم الصغيرة فيها جمن القطعان بحراهم ؛
أو ينتظرونها في بعض الوديان حيث يقتلونهم بسهامهم .

ويصيد الاسكيمو الأسماك بكثرة في هذا الفصل أيضاً

حيث تكثر عند مصبات الأنهار وقرب الشواطئ ، ويستخدمون
في صيدها الشباك والحرا ب والصنانير .

مما تقدم نرى أن الاسكيمو يعيشون على أكل لحم الحيوان
ولذا استحقوا اسم Eskimantsic ومعناه أكلة اللحوم النيئة .

المسكن

ويسكن الاسكيمو في فصل الشتاء في أكواخ من الجليد ،
أو يحفرون في الأرض حقرا يغطونها بصلوع الحيوان أو الأخشاب
إن وجدت . وليس لمثل هذه الأكواخ إلا مدخل واحد يصل
إليه الإنسان من ممر ضيق طويل ، وذلك اتقاء البرد وخوفا
من هجوم الحيوان المفترس ، وإذا حل الصيف ذاب الجليد
وانتقلوا إلى خيام تصنع عادة من جلود الحيوان . ولطول
جلوس السيدات داخل هذه الأكواخ متربعات أصبحت
أرجلهن مقوسة .

والحيوانات البحرية عند الاسكيمو أهم بكثير من
الحيوانات البرية ولذا لا يصيدون الكاريبو مطلقا في الشتاء ،
وهو الزمن المخصص لصيد حيوان عجل البحر Seal الذي يعتبر
أساس حياتهم ، فمن جلده يعملون الأحذية ، ويلبسون الأجزاء
ذات الفراء من جلده لتقيهم شر البرد ، كما يغطون قواربهم الصغيرة
بجلده السميك ، ويتخذون طبولهم من الأجزاء الرقيقة منه .

عجل البحر

ومن عظامه يعملون الصناير للصيد و بشحمه يضيئون مصابيحهم
الضئيلة ، كما يدهنون أجسامهم بزيتة .

أما ملبس هؤلاء القوم فغالبه من حيوان الكاريبو لأنه
أخف وأكثرتدفئة من جلد عجل البحر Seal وفي بعض الأحيان
يلبسون فراء الدب القطبي ، وملابسهم معتنى بها ويقوم النساء
بتفصيلها وحياكتها بدقة يتجلى فيها الشيء الكثير من الفن
أحيانا ، وتكاد ملابس الرجال والنساء تتشابه حتى ليتعذر
على الإنسان التفرقة بين الجنسين إذ لا تنمو للرجال لحى .

ويستعمل الأسكيمو في تنقلاتهم الشتوية زحافات من عظام
الحوت أو الخشب تجرها الكلاب . أما في تنقلاتهم الصيفية
فأنهم يستعملون القوارب الخفيفة المصنوعة من عظام الحوت أو
الخشب المغطى بجلد عجل البحر Seal ، ووسط القارب مغطى
كله إلا تجويف بسيط يجلس فيه الإنسان ومعه مجدافه المزدوج



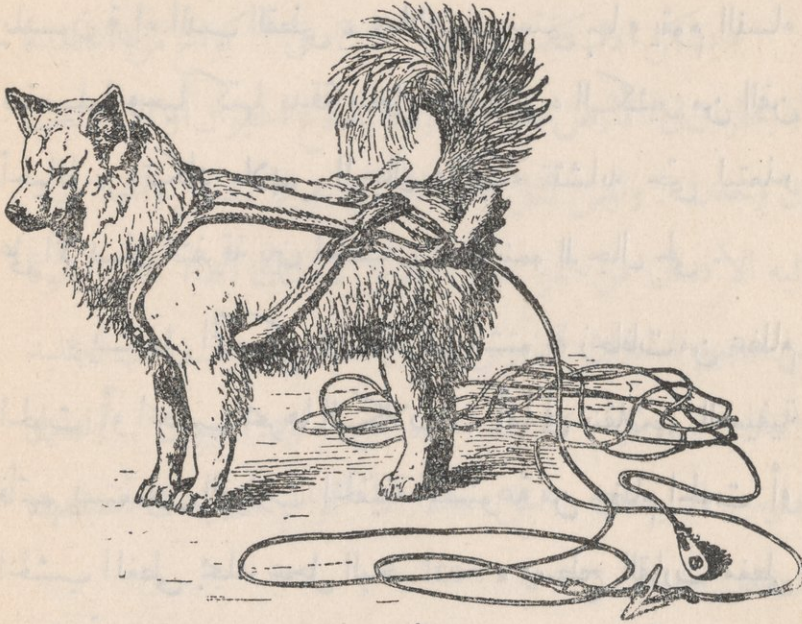
زحافة يستعمل في جرها الكلاب

ولا يزيد عدد الأسكيمو الآن عن ٤٠ ألفا أغلبهم في جنوب
جرينلند والاسكا حيث اختلطوا كثيرا بالبيض وتأثروا

الاسكيمو
الآن

بمدنيتهم ويعيش هؤلاء في جماعات صغيرة متناثرة تحتل كل منها
جزءاً من الشاطئ ولا يربطهم ببعضهم سوى تشابه في اللهجات
نتيجة الجوار والاختلاط البسيط.

وفي كثير من الاحيان يتزوج الرجل أكثر من امرأة واحدة



كلب يهياً لجر الزحافة

من جماعات مختلفة حتى يتاح له الصيد في بقاع كثيرة . وليس
لهم زعماء أو قادة إلا في حالات خاصة كرحلات الصيد مثلاً ،
وعندها يختار الزعيم حسب مهارته وسعة اطلاعه .

الرحلات وقد تبدأ رحلاتهم هذه في أول الصيف وتستغرق ثلاثة أو
أربعة شهور وقد تمتد الى سنة ولذا تجدهم قبل البدء في الرحلة
يرسمون خرائط لسيرهم تمثل البلاد المجاورة والمسالك والوديان الى

مسافة تقرب من المائة ميل . في دقة عظيمة بحيث لا تفتقر
كثيراً عن خرائطنا الحالية .

ونظراً لعدم اهتمام الاسكيمو بمرور الزمن تجددهم نساء ورجالا
يهتمون كثيراً بزخرفة ملابسهم ومقابض حرايمهم بحيث يتجلى
فيها الشيء الكثير من الفن كما تظهر الدقة التامة في خرائطهم
التي تمثل تضاريس البلاد المحيطة بهم .

والاسكيمو على العموم قوم مرحون نهمون ويستخلصون من
الحياة بقدر ما تسمح لهم ظروفهم . وفكرتهم عن الجنة ترى بصورة
من حياتهم بتقليباتها وفقرها وغناها إذ يعتبرون الجنة « متسعا
فسيحا من الجليد تصطبلى عليه عجول البحر في ضوء الشمس
وتحوطه التندرا بأعشابها وطحالبها حيث يعيش غزال الرنة »

هذه صورة حياة الانسان في الأصقاع القطبية يتبين منها
القارئ أن الطبيعة الفقيرة المجذبة تحكم على الانسان بالتأخر
والتدهور الدائم . إذ تتقاضاه أمن مجهوده للحصول على طعامه .
على ما بهذا الطعام من خشونة وبذا لا يدخر من الجهد ما يوجهه إلى
نواح أخرى من النشاط تسبب رقيه وتقدمه .

وما الانسان في تلك البقاع إلا صورة من رسم الطبيعة نفسها
لاحول له معها ولا قوة . إذا جادت عليه بالرزق عاش متنقلا من

وإد إلى شاطئ بحر . وإذا استعصى عليه الحصول على الرزق
نبش القبور وأكل الجيف . وقتل الضعيف والمسن وبعبارة
أخرى انقلب وحشاً لا قلب له .

وبذلك ظل الإنسان طوال العصور في تلك الأصقاع وهو
في المهد من الناحية المدنية .

هذه صورة مبسطة عن الحياة في الغابات الاستوائية ثم في
الأصقاع القطبية . ومنها نرى أثر الطبيعة الغنية والفقيرة في حياة
الإنسان ونعلم أن تلك البقاع كانت ولا تزال موطناً للجماعين
والصيادين من بني الإنسان . وهم في كل أطوار حياتهم يعتمدون
اعتماداً كلياً على الطبيعة . ولم يتمكنوا من تحسين الوسط الذي
يعيشون فيه ولذا ظلوا تلك العصور الطويلة في أقل أوضاع الحياة
شأناً . ولم يستطيعوا الخروج عن نظام الجماعات المتناثرة إلى
نظام القبائل شأن الرعاة أو الزراع .

البَابُ الثَّانِي

الرَّعَاةُ

Pastorals

The Kingdom of the Kings

وإن كان القلب يجرى في جوفه
فإنه لا يجرى في جوفه
فإنه لا يجرى في جوفه

وإن كان القلب يجرى في جوفه
فإنه لا يجرى في جوفه
فإنه لا يجرى في جوفه

وإن كان القلب يجرى في جوفه
فإنه لا يجرى في جوفه
فإنه لا يجرى في جوفه

الفصل الأول

رعاة الخيل في سهوب آسيا

هنالك في سهوب آسيا المترامية الأطراف ميدان آخر للنشاط
الإنسانى فيه يرتفع الانسان عن مستوي الجماعات التى سبق
ذكرها فى الغابات الاستوائية والتندرا، ويرعى الحيوان بدل صيده
وبذلك تتشكل حياته وتضطبع بصبغة خاصة وينضج فكره
قليلا ويرتبط أفراد المجتمع ارتباطاً وثيقاً فتتخذ كل قبيلة رئيساً
محترماً تكون كلمته لديهم بمثابة القانون .

وبذلك يتطور نظام الجماعات المتفرقة الى نظام القبائل
وسنأخذ مثلاً ،

قبائل القرغيز The Kirghis

الموقع تسكن هذه القبائل مع غيرها من قبائل الرعاة كالكازاك
المناخ Kazak فى السهول الواسعة الممتدة من أركتسك إلى بحر قزوين
غرباً ومن نهر أورال إلى نهر سرداريا وهى معرضة لمؤثرات
وظواهر مناخية متباينة . ففي الربيع تكون الأرض خضراء
يانعة غنية بأزهارها . حتى إذا أقبل الصيف بجره اللافت ذبلت
الحشائش واكتسبت الأرض لونا أشهب وهرع القوم إلى الربى

القرية يطلبون الكلاً . ثم يأتي الخريف ويعقبه الشتاء يبرده
القلرس فيغطي الجليد الارض وتتجمد مياه الامهار فيهبط القوم
من الجبال ويتجمعون في الوديان حيث يقضون فصلا موحشاً
تختفي فيه معالم الحياة .

ويخضع الانسان في بيئة المراعى خضوعاً كبيراً للطبيعة
ومؤثراتها . وإذا رجعنا إلى المكتب المقدسة وجدنا فيها وصفاً
مسهباً للانسان في هذه البيئة في حالته الفطرية . وإذا كانت
هذه الحالة تخالف قليلاً ما نجد في الوقت الحاضر ، فذلك لأن
انتشار طرق المواصلات قد انتزع من هذه البيئات عزلتها عن
العالم الخارجى . وعمل الانسان في المراعى محدود بالطبيعة إذ
عمل الانسان طالماً لا تتوفر الظروف الملائمة للزراعة وجب اشتغال القوم
بالرعى و يوزع العمل على أفراد القبيلة رجالاً ونساء ، فالشابات
من النساء يجلسن داخل الخيام يغزلن الخيوط وينسجن القماش .
أما المتقدمات في السن فيصنعن الزبد ، ويشغلن في طبخ اللحم .
والفتيان يرعون القطعان في الوديان وعلى سفوح الجبال وهم
الذين يستطلعون عيون الماء وأصلح بقاع الكلاً . أما الشيوخ
فيصلحون سروج الخيل والأحذية ويصنعون الأواني المنزلية
فاذا جن الليل سيقن القطعان إلى جوار الخيام حيث تقوم النساء
بجليها . والقطيع هو أساس حياتهم وأهم أنواعه الحصان إذ
الحصان

يستخلصونه في الاشراف على القطيع الكبير العدد ، كما أن مقدرته
على تسلق المرتفعات وسرعة عدوه تمكنهم من كشف البقاع
والوصول إلى أصلح مواطن الكلاً كما يساعدهم على الرحيل
من بقعة إلى أخرى ، ولذا كان سكان المراعى من أمهر الناس
في ركوب الجياد وأقدرهم على تذليل الجامح منها . ويلى الحصان
في الأهمية حيوان الياك Yak والضأن والماعز ثم الماشوى
أقل الأنواع أهمية لأنها تحتاج إلى عشب طويل وهو نادر الوجود
في هذه المراعى (المعتدلة)



راكب الحصان وراكب الياك من القرغيز

وكثيرا ما يشتغل الرعاة بالتجارة مع القبائل المجاورة فيأخذون
منهم ما يحتاجون اليه في مقابل ما يزيد عن حاجياتهم . ومثال
ذلك قبائل القرغيز فانهم يبادلون الخيول والضأن بالحبوب
والملابس والأواني الخشبية في أسواق مدينة بخارى كما يشتغل

كثير من الرعاة كوسطاء بين القبائل ذات الإنتاج المختلف
الواقعة على حدودهم .

الغذاء
ويأكل الرعاة ما ينتجه القطيع من لبن وزبد وجبن ولحم،
والسمك المجفف أحياناً . والغذاء اليومي هو الخبز واللبن . ولا
يأكلون اللحم إلا ثلاث أو أربع مرات في الشهر . وهم لا يمتنعون
عن أكل لحم الحيوان الذي يموت موتاً طبيعياً ، ولذا يجففون
هذا اللحم في الصيف لاستعماله في فصل الشتاء . ولا يأكلون من
اللحم كميات كبيرة إذ قد يكفي الخروف من خمسين إلى مائة
شخص لأنهم لا يتركون شيئاً في الحيوان حتى أحشائه وعظامه
وقد سن جنكيزخان وهو أحد قادة الرعاة المغول في القرن الثالث
عشر قانوناً بهذا المعنى .

الملبس
ويلبس هؤلاء الرعاة أردية واسعة من وبر الحيوان وصوفه ،
وتقوم الشابات من النساء بغزلها ونسجها داخل الخيام أثناء النهار .

المسكن
وليست مساكنهم ثابتة دائماً ، بل هي خفيفة يسهل حملها
ونقلها من جهة إلى أخرى ، لأنهم كثيرو التنقل والهجرة .
ومساكنهم في الصيف خيام من وبر الحيوان . وفي الشتاء تصنع
من الغاب وتغطي بالطين اتقاء البرد . ولا يوجد بخيامهم إلا ما
خف من الأثاث وذلك لأنهم عرضة للانتقال المفجئ ولذا كان

رأس مالهم هو القطيع . وإذا توفر لديهم ذهب أو فضة صاغوها
حليا تتحلى بها النساء حتى لا يتعبن في حملها عند الهجرة .

ويتميز سكان المراعى بأنهم يعتمدون على بيئتهم في سد
عوزهم Self - Sufficing Community ، وبأن روح الترحال

الثقل



معسكر القرغيز

متأصلة في نفوسهم ، فيرحل القرغيز الذين يسكنون سهول
التركستان الروسية إلى سفوح جبال الطاي طلبا للكلأ
والماء في الربيع والصيف وهذه هي هجراتهم الفصلية
Seasonal Migrations. كما تضطر بعض القبائل أحيانا إلى السطو
على أملاك غيرها من القبائل إذا ما انقطع المطر وذبلت الحشائش
وأصبحت حياة القطيع في خطر ، وهذه أمثلة من غاراتهم Raids
التي تحتمها الطبيعة . وتولد روح الترحال هذه في نفوسهم الميل
إلى الاستقلال وتعشق الحرية والكبرياء ، واحتقار المهن التي
تستلزم الركود والأقامة الطويلة ، وأخصها الزراعة .

وفي أخلاقهم ميل إلى المحافظة على القديم بسبب عزلتهم عن العالم الخارجى وخضوعهم لرئيسهم الشيخ Patriarch لأن الشيوخ بطبيعة الحال ميالون إلى المحافظة على التقاليد والرغبة عن التغيير والتعديل . ولا أدل على تأصل روح المحافظة على القديم Conservatism فى نفوس الرعاة من أن البلغار وهم من الجنس الأصفر الذى استوطن أوروبا لا يزالون محافظين على عاداتهم القديمة منذ أن كانوا رعاة ، كأكل اللحم وتزين النساء بكل حلين وتفضيل (موسيقى القرب) على غيرها . كما أن الأتراك وهم كذلك من الجنس الأصفر يحبون العزلة . ويخضعون للطاعنين فى السن ولا يختلطون بحيرانهم بل يفصلون بين منازلهم بحوائط وحدائق ويحتقرون الزراعة والصناعة . ولعلمهم الآن يتخلصون من أسر هذه العادات .

وساكن المراعى محارب عظيم وجندى شجاع لأن النزاع على الكلاً وضرورة الهجرة أحيانا مع قطع كثير العدد تسنلزم نظاما حربيا دقيقا . ولذا كانت الأمة كلها جيشاً منظماً ، وكان الجيش أمة متحركة . كما أن التدريب على ركوب الخيل وتحمل الصعاب وخشونة العيش جعلت كل فرد رجلاً شديداً المراس . وأكبر ما يتميزون به فى غزوهم حرب السكر والفر

Sudden Attack and Swifter Retreat ومن أخلاقهم الفخر
بالأنساب واليقظة وقوة الملاحظة . وبينما نراهم يفاخرون بالسطو
على غيرهم من القبائل المجاورة ، نجدهم يعاقبون من يسرق زميله
ومواطنه عقاباً صارماً ، كما أنهم يتميزون بالشمم والاباء وحب
الأنتقام والأخذ بالثأر Blood Revenge

والحياة في بيئة المراعى تسير على وتيرة واحدة وليس للفرد
من المشكلات الاجتماعية ما يستلزم التفكير العميق أو دقة
التحليل ، وهو خاضع للطبيعة الخضوع كله ، وليس في مقدوره
إنبات الكلاء أو درء وباء من الأوبئة ، ولذا كان تفكيره سطحياً
وكان ميالاً إلى الاعتقاد بالقضاء والقدر Fatalist . ويعتقد أن
حياته وحياة قبيلته تسيرها قوة عظيمة مستترة ، وإذا أضيف
إلى هذا الاعتقاد سعة خياله الذي تغذيه الطبيعة الممثلة في
السهول الفسيحة وكثرة أوقات فراغه أمكننا أن نفهم السبب
الذي من أجله أصبح ساكن المراعى كثير التأمل يسعى إلى
تفسير مظاهر الكون وبذلك أصبح مهيباً لقبول الديانات التي
تنادى بالتوحيد .

وقد نزل سيدنا عيسى وسيدنا محمد في بيئة المراعى والصحاري
حيث أفكار القوم مهيبّة لقبول الرسالة والاعتقاد بالله وهو القوة
العظيمة المسيطرة على مظاهر الخلق والطبيعة .

والرابطة العائلية بين الرعاة وثيقة ، لأن العائلة كلما كانت
شديدة الارتباط كثيرة العدد ، عظمت مكانتها وخشى بأسها
وازدهرت مصالحها ، وينتخب رئيس القبيلة عادة من العائلة
الأكثر عددا والأعظم قوة ، ويخضع أفراد القبيلة لرئيسها
خضوعا مطلقا وخصوصا في أوقات الحرب ، وذلك لكبر سنه
وكثرة تجاربه ، وقدرته على معرفة الطقس والتغيرات الجوية ،
ولذا فهو مطلق التصرف في شؤون القبيلة ، وهو الحكم والمشرع
والمنفذ وتسمى هذه الجماعات Patriarchal Societies نسبة
إلى الأب الأكبر

أثر الرعى من هذا العرض لحياة الانسان في مراعى آسيا الشاسعة
يمكن أن نخلص إلى آثار البيئة في حياة الرعاة ممثلة في الحقائق
الآتية :

أولا — أن بيئة المراعى تشجع على التقدم لما فيها من
تغير الفصول الذى يستلزم الكثير من التحمل والشجاعة والقدرة
على التشكل وهم في هذا يخالفون سكان الغابات الاستوائية أو
التندرا حيث لا يكاد يشعر الانسان بتبدل في المناخ .

ثانيا — أن سهوب آسيا شاسعة مترامية الأطراف ليس
لها ما يحميها من الحواجز الطبيعية ، كالصحراء بالنسبة لمصر ،

أو البحر بالنسبة لليونان ، ولذلك اضطر القوم أن يحموا أنفسهم
باجتماعهم واتحادهم . وإذا أضيف إلى ذلك قسوة الظواهر
المناخية التي تجعل حياة الفرد في خطر إذا استقل بنفسه وابتعد
عن غيره ، عرفنا السبب في أن سكان المراعي أمكنهم الارتباط
والاتحاد فكونوا القبائل القوية . وهم في ذلك يخالفون الجماعين
الذين ظلوا طوال العصور متفرقين مبشرين في جماعات ضعيفة .

ثالثا — بما أن الأرض والمناخ لا يلائمان إلا الحشائش
كان من الطبيعي ألا يكتفى الرعاة بأكل الحشائش ، ولذا أصبحوا
رعاة يعيشون على أكل اللحم واللبن والزبد .

رابعا — لما كانت الحشائش عرضة للزوال بسبب ندرة
الأمطار أو هبوب العواصف الرملية كان من الضروري
أن ينتقل القوم من بقاع إلى بقاع ولذا تأصلت في نفوسهم
روح الترحال .

خامسا — لما كانت قبائل الرعاة غير محمية طبيعيا وكانت
معرضة لغزوات غيرها من القبائل اضطروا إلى استعمال القسوة
في الدفاع عن أنفسهم أو في غزو غيرهم بحيث كان القتل والفناء
عقيدتهم وإلا كانوا هم أنفسهم طعمة الغزاة والفاحين .

ولقد نتج عن قترات الجفاف التي كانت تحل بسكان
سهوب آسيا ، أن اضطر هؤلاء إلى الهجرة في جماعات عظيمة

العدد إلى الجنوب والشرق والغرب والشمال ، فاحتلوا الهند والصين وسيبيريا وأوروبا ، وطالما حدثنا التاريخ عما كان يُقاسيه الأغريق والآشوريون في العصور القديمة من هذه الغزوات . ولا يغيب عن ذا كرتنا ما أتاه « اثيلا » رئيس قبائل الهون « Huns » في وسط أوروبا في القرن الخامس من الفظائع حتى سمي « The Scourge of God » (سوط الله) .

وفي القرن الثالث عشر كان يحكم سهوب آسيا القائد الأكبر « جنكيز خان » ولقد حكم خلفاؤه من بعده ثلاثة قرون بعثوا في خلالها جيوشهم للنهب والسلب شرقا وغربا ، ففي القرن الثالث عشر غزا قائد من قواد جاتكيز خان الروسية وبولاندا وهنغاريا ثم تعرضت بلاد النهرين للغزو في عهد كوبلاي خان . وفي القرن السادس عشر غزت الهند وظهرت فيها مملكة المغول . وما الحروب الصليبية في القرن الحادي عشر وسقوط القسطنطينية سنة ١٤٥٣ إلا حدثان من أحداث تلك الغزوات التاريخية لقبائل الرعاة .

من هذا نتبين الأثر الذي تركته غزوات رعاة آسيا على صحيفة العالم ، غير أننا نحار في مبلغ فائدة هذه الغزوات أو ضررها ، ولا جدال في أن تلك الغزوات كانت مدمرة نسفت أمامها كل شيء ، غير أنه لا ينكر أيضا أن على أنقاض تلك

الأمم القديمة ، أمم البحر الأبيض المتوسط ، قامت أمم أخرى
قوية فتية تنسب إلى الرعاة نقلت المدينة الأولى وحافظت
عليها ونهضت بها إلى الأوج ، فقد كان سكان البحر الأبيض
من مصريين وبابليين وأغريق ورومان يعيشون في ظروف
سهلة لم تبعث فيهم روح المجازفة التي امتاز بها سكان المراعى
ولذا فإنه عندما انتقلت المدينة إلى هؤلاء ، انتقلت إلى قوم
أمكنهم نشرها في مشارق الأرض ومغاربها .

كذلك فتحت غزوات الرعاة أعين سكان الغرب إلى
عوالم أخرى كانت بعيدة عن دائرة تفكيرهم ، وعلموا أن هناك
بلدانا أخرى غير إقليم البحر الأبيض تحوى الكثير من
الأسرار وبها مجال للغنى والشهرة . وبذلك بدأت رحلاتهم
شرقا وغربا ، وكانوا يعودون منها يقصون أنباء مخاطرهم ومجازفاتهم
عما شجع غيرهم على التجوال والترحال ، وقد انبعثت هذه الروح
وطغت على العالم فأدت إلى الكشف الجغرافى العظيم فى القرن
السادس عشر .

الفصل الثاني

رعاة الابل في صحراء العرب

نرحل الآن إلى ناحية أخرى من المعمورة ، يعيش فيها
الانسان عيشة مشتتة ، يتنقل بقطعانه من الابل والماعز بين
منابت الكلاً والواحات ، في ظروف مناخية أشد وأقسى من
ظروف رعاة آسيا الذين عرضوا لنا قبل الآن . تلك هي
الصحراوات الحارة الواقعة بين خطي عرض ٢٠° و ٣٠° شمال
خط الاستواء وجنوبه . تلك الصحراوات التي كان لأحداها
نصيب هام في تغيير مجرى التاريخ ، حيث كانت مهبط ديانة من
الديانات العظمى التي تنادى بالتوحيد ، حملها أهلها في صدورهم
ونشروها في مشارق الأرض ومغاربها ، في مهمة كان من دواعي
العجب أن تصدر عن قوم رحل من البدو .

موقع
الصحراء

بجر من الرمال اللانهائية تكتنفه كشيان وملية ترتفع وتنخفض
كأمواج المحيط . متسع عظيم يسوده سكون عميق ، لا يسمع
السائر فيه إلا صوت نفسه وأجراس الدواب التي تحمله . ولا
يكاد يرى إلا اللونين الأصفر والأشهب — فالرمل والدابة
والخيمة والمتاع كلها صفراء اللون ، ولا يشذ عن ذلك إلا زرقة

وصف
الصحراء

السماء ولون الشمس وقت الشروق أو الأصيل ، حين تكتسب
لونا داميا ساحرا . ولقد يسير الانسان الأيام الطوال وهو
لا يسمع صوتا ، حتى ليخشى أن يرفع صوته وقد تملكه سحر
الصحراء ، وهي تجتذبه إلى أعماقها بين سعي النهار وزمهرير
الليل ، والموت يرقبه من بعيد إذا هو ضل عيون الماء التي يتبعها
دليله . فإذا ما اقترب من إحدى الواحات الكثيرة التي تتناثر
في الصحراء ، تغيرت معالم الحياة وخيل إليه أنه قارب الجنة ،
إذا رأى عن بعد أغصان النخيل الخضراء والبيوت الصغيرة
التي تحيط بها المزارع الجميلة .

وقد زودت الطبيعة نبات الصحراء وحيوانها بوسائل
شتى تقاوم بها العطش . فمن النبات ما له جذور طويلة تصل
إلى الماء الباطني كأشجار النخيل ، ومنها ما له أوراق شوكية
تمنع تبخر الماء . أما حيوان الصحراء فهو الجمل الذي لا تغوص
أرجله في الرمال ، ويمتاز بصبره على العطش والجوع أياما متوالية
لذا يعتبر كالحصان عند رعاة آسيا ، وبه تقاس ثروة الأفراد .
وهو أداة المبادلة في الأسواق ، كما أنه مصدر غذائهم إذ يشربون
لبنه طازجا كما يخزنونه لمدة طويلة على حالته السائلة ، لأنه لا يصلح
كثيرا لعمل الزبد والجبن . ووبر الجمل مادة ملبسهم وحبالهم .

نبات
الصحراء

حيوان
الصحراء

كما يصنعون من جلده آنية الشرب . ولذا نرى أن الجمل عند
أعراب البادية والحصان عند رعاة السهوب وعجول البحر عند
الأسكيمو في المقام الأول من الأهمية .

أعمال السكان

وسكان الصحارى إما رحل Nomads يتنقلون بجمالهم من
مكان إلى آخر طلباً للرعى . وإما زراع يقيمون في الواحات
Settlers يرعون القطعان ويزرعون البلح . ويستلزم فقرهم المدقع
وعدم استقرارهم وتدهورهم من الناحية الصناعية اشتغالهم بالتجارة
مع الزراع القاطنين على حدود الصحراء . فأعراب بادية العرب
يشترون الدقيق والشعير والبن والملابس من أسواق دمشق ،
ويدفعون في مقابل ذلك البلح والجلود . كذلك يعمل سكان
الصحراء كوسطاء بين السكان القاطنين على حدودهم ، والذين
يختلفون في نوع الانتاج . ولقد قامت تجارة القوافل من قديم
الزمان بين العراق ومصر وسوريا على أكتاف بدو صحراء
العرب ، كما أن الأعراب والمراكشين يقومون بتجارة القوافل
بين بلاد أطلس وساحل غينا . وقد أدت تلك التجارة إلى
قيام مدن نشأت شهرتها من وقوعها على أطراف الصحراء كمدينة
« تمبكتو » على نهر النيجر بأفريقيا ، تلك التي يؤمها سنوياً ما يقرب
من ستين ألف جمل . وكذلك بغداد والبصرة في العراق ، وأمثال
هذه المدن تتجر في حاجيات الصحراء وما يلزم المسافرين .

وتختلف التجارة باختلاف الانتاج . فالسيوف القاطعة في دمشق
ترينا مبلغ حاجة الأعرابي إلى السلاح ، كما أن تجارة الملح في
تمبكتو ترينا حاجة السكان إليه في تلك المنطقة . ولا ننسى إذا
ذكرنا سكان الخيام وأعمالهم أنهم أقدم من صنع السجاد الجميل
من صوف الحيوان وقد تقدمت هذه الصناعة وتوطدت بانتقالها
إلى سكان الأراضي الزراعية المجاورة حتى اشتهرت بها بلدان
كثيرة أمثال شيراز وبخارى .

والغذاء العادي لسكان البادية هو لبن الجمال والماعز، والخبز والغذاء
المصنوع من القمح أو الشعير . وكذلك الأذرة والبلح وتشترى
هذه الحبوب من أسواق القرى القريبة أو من تجار القوافل
وتحفظ في أكياس تنسجها النساء من وبر الجمال . ولا يأكلون
اللحم إلا نادراً . وإذا نزل بهم ضيف فأنهم يذبحون الجمل
أو الغزال إذا أمكن صيده ، وتوزع أجزاء منه على الأهل
والأصدقاء . وأكلاتهم الرئيسية في المساء حين يصنعون الخبز ،
وتشترك النساء في الأكل مع الرجال إلا إذا كان لديهم ضيف
غريب عن القبيلة . ولقلة أكلهم هذه أثرها في نحول أجسامهم .
والواقع أن المشل الأعلى للرجل عند العرب هو ذلك النحيل
الضامر طويل القامة سريع الحركات .

وقد أدت قلة موارد الرزق عند كثير من قبائل العرب إلى

الرغبة عن الأكتار من النسل أو التزوج بأكثر من واحدة وفي تاريخهم ما يدل على شيوع عادة وأد البنات بينهم Female Infanticide. وقد حرم القرآن الكريم هذه العادة في قوله تعالى : « ولا تقتلوا أولادكم خشية إملاق نحن نرزقهم وإياكم » ويشترى سكان الصحارى الآن ملابسهم وأسلحتهم من أسواق القرى المنشورة على حدود الصحراء ، أو من تجار القوافل كما أنهم يغزلون صوف الجمل وينسجونه على أنوال يدوية بسيطة وقت فراغهم الطويل . ويصنعون خيامهم من جلد الماعز ووبر الجمال . غير أن سكان الواحات يتخذون منازل من الحجر اتقاء الحرارة .

الملابس

المساكن

والوحدة الاجتماعية عند أعراب بادية العرب هي الأسرة وتمتد من الجد الثالث إلى الحفيد الثالث الذكور فقط . ويعيش هؤلاء في بقعة واحدة يرأسهم شيخ القبيلة الذي يمتد نفوذه على كل أفراد القبيلة ، كما قد يمتد سلطانه إلى أفراد غرباء عنه طلبوا حمايته من جور الأعداء . ويرث الأب أولاده الذكور ولهم النصيب الأكبر . وقد ينفصل أحد رجال القبيلة مع بعض الأفراد ويكونون قبيلة أخرى . لدواع أهمها قلة العشب أو الحزازات الشخصية بين أعضاء القبيلة وشيخها .

وقلما يتزوج أعراب البادية أكثر من زوجة واحدة ، إلا

الحياة الاجتماعية

إذا كانوا من أغنياء القوم ، وفي هذه الحالة يفر دون خيمة خاصة لكل زوجة وفي كثير من الأحيان تعيش الأم مع أولادها تاركة زوجها مع زوجته الجديدة . ومن عاداتهم تفضيل ابن العم كزوج للبنت ، وإذا رفضت هذه أو أبي ذووها ، استأذنوا ابن عمها عند زواجها بآخر . ويملك كثير من شيوخ القبائل العبيد عبيداً يقومون بخدمة القطيع ويضربون الخيام ويوفرون لسيدهم أسباب الراحة ، غير أنهم في القبيلة يكونون وحدة خاصة ، ولا يسمح لهم بمصاهرة العرب وإذا حدث ذلك كان عقابه الموت .

العبيد

قبيلة الرولة
Ruual

وإذا درسنا حالة قبيلة الرولة Ruual في صحراء العرب من شمال غرب « منخفض سرحان » إلى « النفود » وجدنا تأثير البيئة ممثلاً أحسن تمثيل . فهم قوم ذوو بنية قوية ، سمر الوجوه أجسامهم ضامرة صلبة كالأرض التي يتنقلون عليها . ويعيشون في بساطة تامة كبساطة الصحراء . وقد أدى صراعهم على الحياة إلى تفتق حواسهم ، فهم على جانب عظيم من صفاء الذهن وقوة الملاحظة والمهارة والمكر وسعة الحيلة ، ولا يحسبون حساباً لبعده الشقة إذ لا معنى للتعب عندهم . وهم يجوبون الصحراء في سرعة مدهشة يوقعون الرعب في قلوب القوافل والقبائل المجاورة .

خلق
الصحراء

ويشبه سكان الصحاري رعاية أسيا الذين تقدم ذكرهم في أنهم ولدوا للحرية يتعشقونها ويفخرون بها ، ولا يقبلون الضيم .

الكرم وهم يكرمون الضيف لا اعتقادهم أن الضيف إذا لم يجد مأوى وطعاما مات من قسوة الصحراء ، كما أنه يحدث شيئا من التنوع في حياة البدوى المملة ، وينقل إليه أخبار القبائل الأخرى ، وهو إلى جانب ذلك يروى ، بعد عودته إلى قبيلته ، مبلغ ما وجد من نفوذ مضيفه .

الحروب
والمنازعات

أما غارات قبائل العرب قالتاريخ مليء بها ، يحدثنا عنها بأسهاب . وما حرب البسوس التي وصفها مهلهل التغلبي في قصائده الخالدة ، إلا واحدة من حروب كثيرة ، كان ينقسم فيها العرب على أنفسهم سنوات طويلة ، يسود فيها القتال وتخرب الدور ويهلك القوم . وقد يكون مصدر هذه الحروب النزاع على أراضي الكلاً ، وهذا يحتمه تنازع البقاء . كما قد تكون نتيجة عمل طائش من أعمال الشبان المولعين بالمخاطر والشهرة . وغزواتهم هذه إما شاملة لكل رجال القبيلة ، وبذا تتخذ مظهر الحروب ويكون من ورائها قهر قبيلة بأكملها وإخضاعها ، أو جزئية تتخذ شكل مناوشات بين عصابات من القبائل غرضها السطو وسرقة الابل أو الخيل التي تعتبر أنفس ما يمتلك رجال القبيلة . والأعراب لا ينسون إساءة مطلقا وإذا قتل من بينهم

الثار

قتيل اعتبروا ذلك إقلا لا من عدد المحاربين منهم ويستلزم ذلك قتل فرد من القبيلة المعتدية ، وقد يقبلون الفدية Blood Price

إذا كانوا ضعافا ، وهى عبارة عن عدد من الجمال يتراوح قلة وكثرة حسب منزلة القتل . وكثيرا ما تسبب هذه الخزازات « Blood Feuds » حروبا كبيرة تقضى على المئات من القوم . وقد عرض القرآن الكريم لهذه الناحية من خلق العرب ، لكنه حض على العفو وعدم الاسراف فى القتل .

ومن أخلاقهم احترام الكبار ، والطاعين فى السن ، والصبر على المكاره ، وتحمل المشاق ، وذلك ناتج من طول تعرضهم لقسوة الطبيعة .

وليس لساكن الصحراء من المعضلات ما يستلزم دقة سعة الخيال البحث المنطقي ولذا كانت قوة تفكيره ضعيفة . والعرب فى تجوالهم من واحة إلى واحة فوق صحراء شاسعة يرتد عنها البصر حيث لا يوجد ما يجذب النظر ، قد تركوا خيالهم وتأملهم العنان ، فشعروا بضعفهم وقلة حيلتهم أمام الصحراء العظيمة التى لا يسعهم إلا الخضوع لها والاستكانة لأمرها والتفكير فيما وراءها من قوة خالقة تسير الأمور . وقد هداهم هذا التفكير إلى وجود قوة خفية تشكل حياتهم وتسيرهم على نحو خاص لا قدرة لهم على تحويره . ولذا اعتقدوا بالقضاء والقدر Fatalism وكان لوحدة المظهر المائل فى الصحراء أثر فى اعتقادهم التوحيد بوحداية الله ، ولذا فلا عجب أن كانت صحراء العرب مهبطا

للدین الاسلامی كما كانت أطرافها مهبطاً لليهودية والمسيحية وكل
هذه الديانات قائمة على التوحيد .

احماس الدينى وقد كان لرسوخ التعاليم الاسلامية فى نفوس العرب الذين
هياتهم الطبيعة لذلك من قبل ، واعتقادهم بضرورة عمل الخير
لأنه خير ، والابتعاد عن الشر لأنه شر ، الاثر الأعظم فى
حملاتهم الدينية على الأمم المجاورة بقصد نشر دينهم . وإنك
لتلمس تلك الحماسة الدينية والعقيدة المؤمنة فلا تجد لها أثراً بين
قبائل الهمج الوثنيين ، أولئك الذين لا يعدو احترامهم لألهتهم
الموهومة أو تقديمهم القرابين لتمثيلها ، أن يكون خوفاً منها لاجبا
خالصاً لها . بعكس العرب الذين رسخ حب الله فى نفوسهم لدرجة
أوجدت بينهم طوائف من المتصوفة الذين يتفانون فى حب الله كابن
الفارض وأتباعه ، ولهذا فلا عجب إذا انتشر الدين الاسلامى على
أكتاف سكان البادية إلى مشارق الأرض ومغاربها حتى إذا وصلت
الفتوح الاسلامية إلى نهايتها ظل الدين الاسلامى ينتشر ويتغلغل
حتى بين أقوام أصبحوا سادة العرب فيما بعد كالأتراك العثمانيين .
تلك أنباء الصحراء تطالعك فيها الرمال المجذبة والشمس
الحرقة ، والسماء الصافية والأرض القاسية . وأثر كل أولئك على
رجل الصحراء فى نفسه وعقله . وخلق وعمله . وإنه ليدھشك

حقاً في « كتاب الصحراء » تلك الرسالة الفذة التي تلقاها رجل
البوادي فأحسن لقاءها ، ثم حملها وراح يبشر بها أقواما (الفرس
والروم) كان لهم من وفرة العدد ، وقوة العدة ، ووسائل الحياة
وأبهة الملك ، ما تضائل أمام إيمانه الوثيق وحبه العميق لله .
تلك الرسالة هي الاسلام الذي ولد بمكة ، ثم طوف بالأرجاء
وله الآن في أنحاء العالم قدر معلوم . وهذا تاريخ البدو ينافس
تاريخ الرعاة ، وقد كانت آسيا موطناً لكليهما ، وقد كان
لكليهما نصيب عظيم فيما طرأ على العالم من تغيير وتبديل .

الفصل الثالث

رعاة الرنة في سيبيريا

عرضنا للقارئ الآن صورتين لحياة الرعاة في بقعتين مختلفتين من بقاع العالم إحداهما تظهر فيها أهمية الحصان والثانية يبدو فيها أثر الجمل في حياة الناس ولنعرض الآن لبيئة أخرى من الرعاة في جهة نائية من العالم تعتمد على غزال الرنة كالحيوان الرئيسى في القطيع . أولئك هم قبائل التنجس والسامويد والكوريك .

التنجس The Tungus

الموقع تعيش تلك القبائل في جماعات صغيرة ، متفرقة في شرق سيبيريا من نهز ينسى Yenesei إلى شبه جزيرة كمتشكا ، على رعى حيوان الرنة . وأكثر البقاع تميزا في رعى هذا الحيوان هي منطقة بيكاليا Baikalia على جوانب جبال يابلونوي ، وكنجهان Kinghan الشمالية شمال خط عرض ٥٥° . وهي بقاع ذات صيف

قصير الأمد ، من منتصف يونيه إلى آخر أغسطس ، أما هضابها
ومرتفعاتها فيقتصر صيفها على شهر يولييه فقط ، وخلال هذا
الصيف القصير تتحول الأرض إلى مستنقعات شاسعة . أما في
الشتاء الطويل فتتجمد المياه ويغطي الجليد الأرض وتنخفض
درجة الحرارة إلى ٨٠° ف تحت درجة التجمد .

وتنتقل قبائل التنجس الشمالية إلى التندرا في فصل الصيف
حيث يكثر العشب الذي ترعاه قطعان الزنة ، ويحاول القوم جهدهم
تغذية قطعانهم في هذا الفصل ، حتى يمكنها مقاومة الجذب في
فصل الشتاء الطويل ، حين يقل العشب ، ويضطر الحيوان في
كثير من الأحيان إلى تفتيت الجليد بحوافره حتى يصل إلى
الطحالب القصيرة . وفي هذا الفصل لا يصبر القوم على البقاء
بقطعانهم في بقعة واحدة ، بل يكثر تنقلهم وراء الطحالب
والعشب ، ولذا كان من المحتم عليهم أن يمتلكوا بقاعا واسعة
لا تقل مساحتها عن أربعة أميال مربعة لكل رأس من القطيع .

وتعتمد بعض هذه القبائل اعتمادا كليا على ما ينتجه القطيع
إذا كان عدده كبيرا ، وفي هذه الحالة يقوم الرجال برعيه وملاحظته
أما إذا كان عدد القطيع صغيرا اشتغل الرجال بالصيد لتوفير
غذائهم ، وتركوا الاشراف على القطيع للنساء . ويعيش القوم
على ألبان هذا الحيوان إذ لا يذبحونه إلا في مناسبات خاصة

أهمية حيوان
الزنة

كلاً عياد ، أو إذا تعذر الصيد . ولبن الرنة حلو كثيف غير أنه لا يصلح كثيراً لعمل الزبد . ويستعمل الحيوان لحمل الأثقال أو جر الزحافات وهو أصلح من الحصان وأثبت قدماً في الجهات الصخرية والمستنقعات . وفي استطاعته حمل ما يربى على ١٥٠ رطلاً من الأثقال ، كما يمكنه قطع مسافات طويلة لا تقل عن ٥٠ ميلاً في اليوم الواحد .



أحد الرعاة يركب الرنة

ولا تختلف زحافات التنجس التي تجرها الرنة عن زحافات قبائل اليوكاغير التي تجرها الكلاب ، كما قدمنا غير أنها أكبر حجماً ، وهي لا تستعمل إلا في التندرا حيث يمكن أنزلاقها على الجليد أو الأعشاب اللينة .

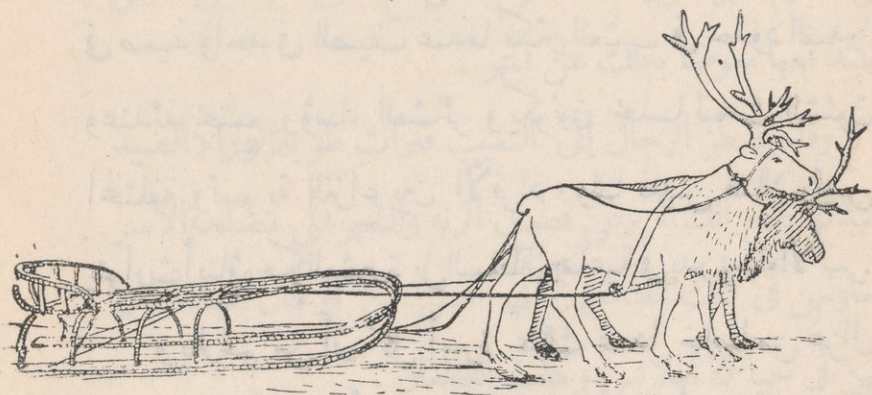
واستعمل الزحافات شائع بين قبائل هذه الجهات حتى الابلاندين (Lapps) ، في شمال فنلندا ، الذين لا يركبون الرنة . أما في الغابات الجنوبية فلا تستعمل الزحافات بل يقتصر القوم على ركوب الحيوان .

وتتعرض قطعان الرنة في كثير من الأحيان لأوبئة تفتك

بها فتكا ذريعا . كما تهاجمها الذئاب الجائعة ، في الشتاء فتقتضى
على الكثير منها . ولذا يقطنى الكثير من هذه القبائل كلابا
لحراسة قطعانهم .

ولا تقتصر حياة هذه القبائل على رعى غزلان الرنة ، بل
يشتغل الكثير منهم بصيد الأسماك والوعول والغزلان والدب
وتستعمل إناث الرنة المستأنسة لأغراء الغزلان الشاردة المتوحشة
على الاقتراب من مكن الصيادين حيث يرشقونها بسهامهم .
وكثيرا ما يبادل رجال هذه القبائل فراء الحيوان بالآنية والشاى
والتبغ والأسلحة ، مع التجار الروسين الذين يجوبون بقاع
سيريا لهذا الغرض .

ويسكن التنجس الرعاة فى خيام مخروطية من جلد الرنة فى المسكن.



زحافة يجرها غزال الرنة

فصل الشتاء ، وذلك لاضطرارهم إلى كثرة التنقل سعيًا وراء
العشب وطلبًا للصيد . أما فى الصيف عندما ينتقلون الى حدود

التندرا حيث العشب الوفير ، فانهم يبنون قرى دائمة ذات
أخصاص من أخشاب الأشجار يزورونها سنويا .

الحياة
الاجتماعية

ويعيش التنجس في قبائل تتكون كل في الغالب من عشائر
تربطها صلة الأب ، يتزاوجون فيما بينهم ، ولا يتزوجون من القبائل
الأخرى ، وكثيرا ما تنقسم القبيلة بهجرة بعض أفرادها ، أو
تضم أفرادا من قبائل أخرى عاجلتها عوامل الفناء . وتعيش
عشائر القبيلة الواحدة في سلام ، ولكل بقاعها الخاصة بالرعى
والصيد ، وقما يحدث بينهم من النزاع ما يؤدي إلى انفصال عشيرة
عن قبيلتها . وتقضى هذه العشائر معظم السنة متنقلة من بقعة إلى
أخرى للرعى والصيد في جماعات قليلة العدد ولكنها تجتمع
في صعيد واحد في الصيف عندما يكثر العشب في حدود التندرا
وعندئذ يجتمع رؤساء العشائر ويكونون مجلسا لبحث الشؤون
المختلفة وتسوية النزاع بين الأفراد ، ولذا فليس هناك رئيس
يتوارث أبناؤه حكم العشيرة بل السلطة إجماعية في يد رؤساء الأسر .
وبالرغم من أن كل أسرة تمتلك عددا خاصا من غزال
الرنة ، قد يحدث كثيرا أن يعاد توزيع القطيع على الأسر المختلفة ، إذا
ما انتشر وباء قتل من عدد القطيع ، ولا يقبل أحد من أفراد هذه
العشائر أن يرعى قطعان غيره كأجير أو كخادم ، لأن الثروة

موزعة بينهم توزيعا عادلا .

وعند زواجهم يقدم أهل الرجل لوالد الفتاة هدية من حيوان الزواج الرنة يسمونها ، Turi وهي شبيهة بالمهر Bride-Price عند رعاة آسيا وبلاد العرب وقد يشترك في هذه الهدية بعض رجال العشيرة من أقارب الرجل . ويتفاوت هذا المهر حسب جمال العروس ومهارتها ومركزها الاجتماعي ، غير أن نصف هذا المهر يرد لأهل الزوج كهدية العروس مع بعض الأواني والجلود ، ويبقى المهر ملكا للعروس يرثه بناتها من بعدها ، وكثيرا ما تتبادل الأسر البنات وعندئذ لا يدفع مهر إلى أحد الطرفين ، وإذا عجز الرجل عن تقديم مهر لعروسه لفقره عاش مع أسرتها مدة من الزمن يصيد معها معوضا بذلك عن المهر .

وقد يضطر الرجال إلى التغيب فترات طويلة وراء الصيد وعندئذ يقوم النساء برعى قطعان الرنة والسهير على مصلحة الأسر ويعاونهن في ذلك الطاعنون في السن من الرجال فيشتركون معهن في حياكة الملابس وحلب القطعان .

ويقسم ما يصيده الرجال من حيوان وأسماك ، وما يجلبه النساء من لبن ، بين أفراد الجماعة ، وهذا يدل على ما بينهم من شدة ارتباط يحول في أغلب الأحيان دون تدهور الأفراد أو فقرهم .

وتستلزم هذه الحالة الاقتصادية بين التنجس وجود وحدة عائلية من رجل وامرأة على الأقل ، وقد يعيش مع الرجل أبواه وأولاده المتزوجون وبذا تضم العائلة ثلاثة أجيال ، ولما يتزوج الرجل من أكثر من واحدة إلا إذا كانت زوجته عاقرا

وإذا مات رئيس الأسرة أو عجز عن العمل ورثة ابنه الأكبر فأصبح مسئولا عن شئون الأسرة وممثلها في مجلس العشائر ، وإذا ماتت الزوجة ورثتها الزوجة الثانية التي تكون في غالب الأحيان أختها .



من هذه الصورة المبسطة لحياة هذه القبائل نرى أن اشتغالها بالرعى والصيد قد حتم عليها تكوين وحدات عائلية دائمة قوية ممثلة في القبيلة . كما أن الأسر على صغرها وتناثرها تسود بينها روح التعاون التي تحول دون فقرها وتدهورها . كما أن التزاوج بين العشائر المختلفة واتحادها في الصيد والرعى قد ساعد على تقوية الرابطة الاجتماعية بينهم ، وهذا حتما يؤدي إلى ازدياد قوة الوحدة الكبرى وهي القبيلة .



عرصة عام « الرعاة »

قدمنا أن الرعاة يقطنون بيئات تكاد تكون منعزلة عن العالم الخارجي خصوصاً قبل انتشار طرق المواصلات الحديثة وأنهم يعيشون في جماعات تستطيع الاعتماد على نفسها من الوجهة الاقتصادية Self-sufficing Communities . وقد نتج عن هذه العزلة وعن طول ممارستهم للرعى دون غيره من المهن صعوبة تحويلهم إلى زراع يهتمون بالأرض مباشرة ، وقد تجلت هذه الظاهرة في غزوات الأتراك العثمانيين لبعض البلدان كمصر ، حيث كان الوالي يعيش بعيداً عن الشعب ويعين من قبله ملتزمين لجباية الضرائب التي يفرضها ، دون أن يهتم هو بالشئون الزراعية ولذا لم تكن غزواتهم عميقة الأثر كغزوات غيرهم من الزراع . غير أن الرعاة في صعوبة انتقائهم إلى مهنة الزراعة ، لا يختلفون كثيراً عن قبائل الصيادين إذا أريد تحويلهم إلى رعاة . والأمثلة كثيرة على ذلك : فقد أدخل غزال الرنة المستأنس في قبائل الأسكيمو في ألاسكا ، وحاول كثير من الرعاة الآسيويين واللابلاندين تدريب الأسكيمو على رعيه فلم يفلحوا إلا بعد مدة طويلة ، إذ كان الأسكيمو يقتلون الحيوان دون تردد ، كعادتهم في صيد حيوان الكاريبو . كذلك نجد في جنوب غرب أفريقيا

عزلة الرعاة
وأثرها في
مهنهم

قبيلة من قبائل البشمن Bushmen الصيادين ، اشتغل أفرادها
طويلا في رعى ماشية إحدى قبائل الرعاة وتسمى Herero ،
وبرغم ذلك لم يقتنوا الحيوان لمصلحتهم ولم يحاولوا رعيه وإذا
اقتدر أحدهم على اقتناء الحيوان ترفع عن حلبه والانتفاع بلبنه .

ومهنة الرعى أقل تركيزا للانسان من الزراعة ، فهي تستلزم
الترحال الدائم أو المؤقت كما قدمنا . وفي بعض الأحيان إذا
اختلط الرعاة بالقرى الزراعية الواقعة على حدودهم ، ووجدوا
من الاطمئنان وسهولة العيش ما يشجعهم على الإقامة مارسوا
الزراعة بالتدريج ، وتحولوا إلى قبائل مقيمة متوطنة ، ومن أمثلة
ذلك بعض قبائل الرعاة المقيمين في سهوب شمال سوريا ، فأنهم
في الوقت الحاضر يتحولون بالتدريج إلى زراع ، وبالرغم من أنهم
يسكنون في خيام من شعر الماعز إلا أنهم يزرعون الذرة ويتركون
قطعانهم لمأجورين من الرعاة ، ولطول إقامتهم في بقعة واحدة
يبنون بالتدريج أكواخا من اللبن ثم يتركون هذه إلى منازل
مسطحة السقف وبذلك يصبحون زراعا ورعاة في الوقت نفسه .

وكثير من سكان إقليم التل بمرآ كش يعيشون في خيام
ويقتنون قطعانا ، غير أنهم ليسوا رعاة بالمعنى الصحيح ، فهم
يزرعون الأرض على مدار السنة ولما يتنقلون بقطعانهم ، وهذا

شأن كثير من قبائل البربر في الصحراء الكبرى ، أولئك الذين
يتركون الرعى ويزرعون الأرض في الواحات الكثيرة المنتشرة
في الصحراء .

غير أن هذا كله لا ينفي أن الكثير من قبائل الرعاة في
آسيا يعتمدون كلية على الرعى دون الزراعة ، إما لأن ظروف
التربة والمناخ لا تساعد على ذلك أو لأن حالتهم السياسية
لا تشجع على الاستقرار لمباشرة الزراعة . كما أن الكثير من الرعاة
يحتقرون الزراعة كالكازاك من رعاة آسيا والمساى من رعاة
أفريقية .

وكثيرا ما يشتغل الرعاة بصيد الحيوان إلى جانب رعيه ،
ويتخذ هذا الصيد صبغة رياضية كما هي الحال بين قبائل الكازاك
Kazak وأعراب بادية العرب ، إذ يصيدون للتسلية وإظهار
القوة والمهارة ، ولكنك تجد بعض قبائل الرعاة في أفريقيا
كالطوارق Tewarik والفولا Fula والبانو Bantu يصيدون
الغزلان والزراف لأكلها ، ويعتبرون قطعانهم مظهرا للثروة
والجاه فقط ، كما يعتمدون عليها في الحصول على اللبن .

وتم ظاهرة أخرى في حياة الرعاة علينا أن نحللها في شيء تنقل الرعاة
من الحرص ، تلك هي حبهم للترحال بطبيعتهم Nomadism ،

فاذا قلنا إن الرعاة كثير و التنقل فلا نقصد بهذا أنهم لا وطن لهم ، فالمشاهد أن لكل قبيلة أو عشيرة أمكنة خاصة يرعون فيها قطعانهم ولا يعتدون على أملاك غيرهم دون إثارة منازعات طويلة لها خطرهما ، فقبائل Kazkak مثلا لها مساكن شتوية دائمة تعتبر من أملاك القبيلة . كما أن تنقلهم هذا يتوقف على قوتهم وتوفر دواب الحمل عندهم كالحصان . فبينما يتنقل رعاة وسط آسيا مئات الأميال سنويا لتوفر الحصان السريع عندهم نجد قبائل Kalmuck في جبال الطاى لا يتركون مراعيهم الغنية إلا إذا طال هجوم الحيوانات الضارية عليهم .

غير أن الرعاة إذا تعاقبت عليهم سنوات من الجفاف هددت حياتهم بالجوع فلا مناص من هجرتهم إذ ذاك الى بقاع أصح للحياة . والتاريخ يحدتنا كثيرا عن غزوات قبائل الرعاة من آسيا الى أوروبا ، كما أن سور الصين العظيم الذي بناه الامبراطور شى هوانج تى فى سنة ٢٢٠ ق.م لا يزال أثرا خالدا يقص علينا الأخطار التى كان يتعرض لها الصينيون من غزوات قبائل المغول والتتار والسبب فى أن غزوات الرعاة التاريخية على الزراع من الأمم المجاورة كانت أكثر من غزوات الزراع على الرعاة ، أن الرعاة فى حروبهم يخسرون طفيفا اذا هزموا ويغنمون كثيرا إذا

انتصروا ، بعكس الزراع الذين لا يجدون ما يشجعهم على غزو
أرض الرعاة إلا اذا كان ذلك لاحلال النظام أو الانتقام

المرأة بين الرعاة :

يكاد تعدد الزوجات عند الرعاة يكون نادراً ، ويقتصر على
ثروة القوم ، كما أنها ظاهرة تشاهد في القبائل التي تمتلك الكثير
من القطعان التي تستلزم سهر النساء وعنايتهن كما هو الحال في

قبائل Kalmuck

وقد يغالى بعض الناس في تحقير شأن المرأة بين الرعاة غير
أن دراسة بسيطة لمركز المرأة في قبائل الكازاك حيث لا تلبس
حجاباً ولا تنعزل «في الحريم» وتشارك اشترا كاً فعلياً في العمل
اليومي للقبيلة شأن النساء في قبائل القرغيز — كما قدمنا — ترينا
أن مثل هذه المغالاة لا مبرر لها ، وهما في بلاد الصين رغم
اشتغالها بالزراعة قروناً طويلة ، بعيدة عن الرعاة تضع المرأة في
مستوى أقل من الرجل من الوجهة الاجتماعية والدينية والقانونية
غير أننا لا ننكر أن مركز المرأة بين القبائل المشتغلة
بالرعى أقل من مركز الرجل ، وربما وجدنا في الحالة الاقتصادية
البيئة الرعاة تعليلاً لذلك ، وهو أن نصيب المرأة من العمل أقل

من الرجل ، فهو يقتصر على حلب الماشية وخض اللبن ونسج
الخيام غير أن رعى القطيع والانتقال به من مرعى إلى آخر
والتعرض لأخطار الحيوان المفترس والقبائل المعادية كل أولئك
من أعمال الرجال ، فلا غرابة أن ينظر الرجل إلى نفسه نظرة
تفوق نظره إلى المرأة .

الباب الثالث

الزراع

Cultivators

الفصل الأول

الزراعة في وادي النيل

مقدمة

أثبت التاريخ أن الزراعة هي المهنة التي أدي الاشتغال بها في ظروف خاصة إلى ظهور الانسان المتعدين ، وخروجه من ظلام الوحشية . والزراعة ليست قاصرة على جهة دون جهة ، بل هي منتشرة حيثما وجد مناخ وتربة صالحة ولذلك نجد الزراعة في أطراف الغابات الاستوائية في أحط مستوى لها ، وكذلك نجدها في واحات الصحراوات الحارة ، وفي وديان الأنهار ، وفي السهول الفسيحة الموسمية وفي الأقاليم المعتدلة الباردة .

ومن دراستنا السابقة للانسان في الغابات الاستوائية والأصقاع القطبية يتضح لنا أن تأخر الانسان وركوده في الجهات الأولى راجع إلى عدم حاجته إلى بذل أى جهد للحصول على طعامه ، إذ وفرت له الطبيعة ، كما أن تأخره في الجهات الثانية راجع إلى قسوة الطبيعة التي تضطره إلى بذل كل مجهوده في الحصول على

قوته بحيث لا يترك له ذلك مجالاً للنهوض والرقى .

من ذلك يتضح أن بذل الجهد للحصول على الرزق ضرورى للتقدم كما أن ادخار بعضه وتوجيهه فى ناحية نشاط أخرى باعث على النهوض والترقى .

ولكى تدخر الجماعة أكبر قسط من جهدها لاستغلاله فيما يعود عليها بالمنفعة ، كان لزاماً عليها أن تعيش فى سلام وطمأنينة بعيدة عن الحروب والمنازعات التى تسلبها ذلك الجهد المدخر . حماية الطبيعة ولذا لا بد أن تكون المدينة الأولى قد نشأت فى جهة آمنة مطمئنة لم تتعرض للعدوان الخارجى ، حتى تتمكن فى ظل السلام والهدوء من التوسع والتقدم . فاذا وجدت الجماعة من الطبيعة واقياً وحامياً لها بحيث لا تضيق من مجهودها شيئاً للدفاع عن نفسها أمكنها استغلال كل قوتها الكامنة فى النهوض بنفسها .

وإذا استعرضنا التاريخ وجدنا أن الأمم المختلفة ، كانت لها وسائل طبيعية متنوعة تحميها وتصد عنها الغارة ، كالهضاب الشاهقة الخالية من النبات لشدة برودتها والصحارى الجذباء لتعذر وجود الماء بها والبحار العميقة التى يستحيل عبورها . كل هذه الحوائل كانت فيما مضى تستلزم مجهوداً جباراً لتذليلها ، وقبل أن يصل فكر الانسان إلى استنباط وسائل هذا التذليل كانت

الجماعات المحمية قد وصلت إلى درجة لا بأس بها من المدنية
تمكنها من مقاومة المعتدين .

ولا جدال في أن علمنا بالأشكال الأولى للمدنية لا يزال
ناقصاً قاصراً ، فليس لدينا ما نستدل به استدلالاً قوياً على حالة
الانسان خلال تطوره من الهمجية إلى المدنية . فمن الطبيعي إذاً
أن المدنية التي نعرف عنها الكثير ، والتي هي مدار بحثنا الآن
لم ينته الانسان أليها إلا بعد عشرات الآلاف من السنين ، وأن
نموها خلال هذه الآباد كان بطيئاً جداً إذا قيس بنموها بعد أن
توفرت الظروف الكثيرة الداعية للرقى . ولذا فمن الواجب أن
نذكر أن الأزمنة التي نعتبرها « أزمنة تاريخية » — رغم ما تخللها
من حوادث جسام شككت حياة البشر — هي قصيرة جداً إذا
قورنت بما سبقها من عصور مظلمة .

مما سبق نستنتج أن بزوغ فجر المدنية كان في جهة لم يصل
فيها غنى الطبيعة إلى درجة تصرف الانسان عن القيام بأى مجهود
للحصول على طعامه شأن الغابات الاستوائية ، فيركد ذهنه وتفتر
همته . ولا في جهة لا تجود فيها الطبيعة بشيء فيستنفد الانسان
كل مجهوده للحصول على طعامه ولا يدخر منه شيئاً ينهض به
شأن الاصقاع القطبية ، بل في جهة لا تصعب فيها الحياة ، في

جهة تضطر الانسان إلى النظر للمستقبل والعمل له ، في جهة
يتسع المجال فيها للجماعة أن تكون مجتمعاً أكبر من الاسرة أو
القبيلة ولا تسمح لها في الوقت نفسه أن تتشتت فتضيع رابطتها
وتتفكك وحدتها ، في جهة تحميها الطبيعة من غزو جماعات
أخرى تهدم المدنية وهي في مهدها .

ولا يطول بنا البحث كثيراً حتى نهتدي إلى تلك البقعة مهد المدنية
من الأرض التي كانت مهد المدنية الأولى ومسرح التطور من
الهمجية إلى حالة أرقى وأكثر نضوجاً

وادي النيل

نهر عظيم ينساب في وادي يانع كونه خلال العصور السحيقة
من مادة الحياة وبناء بمجهود جبار ألقى فيه زهرة حياته ، ممهداً
الوعر من طريقه مغنياً ما جذب من الأرض وباعثاً روح الحياة
في شعوب هادئة على ضفتيه ، نهر منت عليه الطبيعة بماء
لا ينضب معينه ، وعطفت عليه فنفتحته من لدنها بالمزيد كلما
اشتد وهج الشمس ، وكأن الطبيعة تعطف على ساكن الوادي
وتعلم ما يقاسيه من قحط إذا ما تأججت نيران الحر اللافتح .

وادي يانع خصب يمتد من الجنوب إلى الشمال يتسع تارة عزلة الوادي

ويضيّق ، أخرى يحتضن بين ذراعيه ذلك النهر المبارك باعث الحياة ، واد جميل أحاطته عن يمينه وشماله صحراوات قاحلة تنعدم فيها معالم الحياة ، وتهدد بالموت والفناء كل من حدثته نفسه بالاقتراب منه . واد يقف أمامه ذلك البحر المتلاطم الذي لا يعلم أحد ما وراءه . واد تقف في أعالي نهره جنادل وعرة تحطم دون شفقة أو رحمة كل من ساقه سوء الحظ إلى اختراقه .

ذلك هو وادي النيل مهد المدنية الأولى . توفرت فيه كل العوامل الباعثة على النهوض ، فقد وجدت الجماعة الناشئة فيه من خصب التربة ما شجعها على فلاحها واستغلالها ، فلم تهبط الطبيعة من الرزق ما يورثها الفتور ولم تقبض عنها يدها قبضا يورث اليأس والقنوط .

خصب
التربة

ولقد كان في تغير حرارة الفصول وقلة المياه وكثرتها في فترات متعاقبة ما حدا بهذه الجماعة إلى التفكير في الحاضر والمستقبل معا وبذلك استثمر القوم مجهوداتهم في الانتاج . كما أن ضيق الوادي كان باعثا على سهولة ارتباطها وتعارفها ، ومحافظا على وحدتها وحائلا دون تشتتها .

ويدلنا ما نعرف من معلومات بسيطة على أن ساكن وادي النيل في أول عهدنا بالتاريخ كان إنسانا يعيش في

مستوى أرق من الحالة الوحشية قليلا ، وما لبث ذلك الانسان
أن ترك الميدان لانسان آخر أكثر قوة وانتاجا عاش في وادي
النيل ما يقرب من الألفى عام قبل أن يتسع المجال لظهور قدماء
المصريين الذين نعرف عن مدنياتهم الشيء الكثير .

وقد قضى المصريون القدماء عصورا طويلة تحميمهم تلك
الحواجز الطبيعية المنيعه ، فنبئت مدنياتهم ، ونضجت نضوجا
بطيئا قويا ، وما لبثوا أن ازدهرت حالهم ووصلوا إلى درجة من
الرقى مكنت الأسرة الرابعة من تشييد الأهرام العظيمة الخالدة .
وقد ظل المصريون دهورا طويلة تقدر بأربعة آلاف سنة تقريبا
محافظين على استقلالهم ووحدتهم بفضل تلك الموانع الطبيعية .
وهذه أطول مدة قضتها أمة مستقلة موفورة الكرامة . غير أن
تلك العزلة الطبيعية الطويلة التي ساعدت الأقوام المصرية
القديمة على استنبات المدنية وتعهدها كانت هي نفسها عاملا
من عوامل القضاء على استقلالها .

ستكايه
المصريين

فقد استكان المصريون في طوال عهد استقلالهم
واعتمدوا اعتمادا كلياً على الطبيعة في حمايتهم وصد الغارات
عنهم فلم يتعلموا سبل الكفاح والدفاع عن النفس ولم يهيئوا
أنفسهم لمواجهة تلك الظروف القاسية المعقدة التي ظهرت في

العالم بعد أن تقدم وارتقى فإذا ما ظهرت على مسرح الوجود أقوام
أخرى أصلب عودا وأشد مراسا كالفرس والرومان لم يسعهم
إلا الخضوع لهم والاستكانة لسلطانهم .

قوة البناء
الاجتماعي
في مصر

غير أن تلك الغزوات التاريخية التي تعرضت لها مصر
تباعا في خلال تاريخها الطويل كان أثرها في الغزاة أكثر
وأشد منه في سكان البلاد . فشرعان ما كان الفاتحون يندمجون
في الشعب المصري اندماجا كليا ويعتقنون دياناته وتقاليده ،
شأن الهكسوس والبطالسة .

وهذه القدرة على التمسير راجعة إلى بقاء البنين الاجتماعي
في العصور الطويلة بحيث أصبحت أسس الأنظمة ثابتة راسخة
لم تؤثر فيها عواصف الفتح أو الغزو .

وأهم ظاهرة اجتماعية في حياة المصريين ، تلك التي لها أثر
ظاهر في حياتهم العامة والخاصة ، هي قوة الرابطة بين أفراد
الأسرة الواحدة ، وشدة العطف المتبادل بينهم . ولعل ذلك يرجع
إلى أثر البيئة الزراعية . ففي الغابات الاستوائية ، والاصقاع
القطبية حيث يتنقل الانسان ويطول تغيبه عن منزله ، سعياً
وراء الحيوان يصيده ، أو إلى الثمار يجمعها ، ترى التفكك في
الأسرة ، ولا يجد العطف سبيله إلى قلوب أفرادها ، بل إن

الاسكيمو كثيراً ما يتركون الكهول والعجزة منهم للموت إذا اضطروا إلى الرحيل إلى جهة نائية . فإذا ما اشتغل الانسان بالرعى في جهة خاصة ، وقل تنقله نسبياً ، واستقرت الحياة العائلية واشتد الاتصال بين أفراد الاسرة قويت الرابطة بينهم ، وشعروا بأهمية الاجتماع والاتحاد .

أما الزراعة فهي المهنة التي تربط الانسان بالارض وتضطره إلى العناية بها وتحسينها حتى يكفل لنفسه ولأسرته رغد العيش ، وبذلك تعيش الأسرة طوال حياتها في بقعة واحدة ، فيتآلف أفرادها ويقوى عطفهم على بعضهم البعض إلى درجة يكرهون معها الانفصال عن الأسرة .

وقد كان لهذه الظاهرة آثار كبيرة في حياة المصريين الخاصة والعامة ، نجل أهمها فيما يلي : —

أولاً — عدم رغبة الوالدين في انفصال أبنائهم عنهم بعد زواجهم ، ولا تزال تتمثل هذه الظاهرة بوضوح في الأسر الكبيرة في قرى مصر حيث تجد الرجل وزوجته وأبناءه وزوجاتهم في صعيد واحد يشرف عليه الأب وله فيه الكلمة النافذة ، ويسمى هذا « النظام الأبوي » Patriarchal System وقد سبق أن تكلمنا عليه في بيئة الرعاة .

ثانياً — الرغبة عن الهجرة إلى بلد بعيد عن موطن الأسرة،
فكثيراً ما نرى موظفي الحكومة إذا نقلوا إلى بلد بعيد
عن أسرهم أقامهم الامر وأقعدهم وعكروا صفو عيشهم . وكثيراً
ما تأبى الزوجة اصطحاب زوجها إلى ذلك البلد لأنها لا تود
الابتعاد عن أهلها وعشيرتها . وقد كان لهذه الظاهرة أثرها في
عدم إمكان استغلال المصريين للواحات المصرية أو بلاد
السودان ، تلك البلاد الشاسعة الغنية القابلة للاستعمار . والمصريون
في ذلك يختلفون تمام الاختلاف عن الشعوب السكسونية وخاصة
الانجليز . أولئك القوم الذين يهاجرون إلى أقاصى المعمورة حيث
يكونون لانفسهم أوطاناً جديدة يصبغونها بصبغتهم الخاصة
ويستغلون مرافقها وبذلك يؤدون لبلادهم أجل الخدمات .

ثالثاً — سيطرة « الوساطة » على الانظمة الاجتماعية
المصرية ولا أخال القارىء إلا ذا كراً هذه الكلمة على أفواه
الكبار والصغار من المصريين ، فالطالب إذا أراد الالتحاق
بمدرسة ، والشاب إذا أراد الالتحاق بوظيفة ، سعى إلى رجل ذى
مقام رفيع يتوسط لدى ولاية الامور في قبول طلبه . وقد أدى هذا
إلى قبح الكفريات والنبوغ ، وأدى بالكثير من الناس
إلى الخمول واليأس ، لان كل مؤهلات يضرب بها عرض.

الخائط إذا تعارضت مع « الوساطة » .

ولعلنا واجدين في شدة ارتباط العائلة تعليلاً لذلك إذ من مصلحة الزراعة في البدء أن يشرف عليها أفراد العائلة الواحدة، لأن كلا منهم يهتم بمصلحة الأرض وازدهار الزراعة، فإذا اتاحت الظروف لأحد أفراد الأسرة أن يشغل مركزاً كبيراً لا يحجم عن مساعدة أفراد أسرته بل و « بليياته » .

رابعاً — تقدير المصريين للمادة قبل كل شيء لأن عظمة الشخص تقدر عنه المزارعين بمقدار ما يملك من أرض وعقار بغض النظر عن مركزه الأدبي أو علمه ، ويتجلى تقدير المصريين للمادة بوضوح في حالات الزواج خصوصاً في السنوات الماضية ، إذ كثيراً ما تزف البنت إلى رجل جاهل طاعن في السن لأنه يملك كذا وكذا من الأراضى ، ولديه مقدار كذا من المال في المصارف . ولا يخفى على القارئ ما تسبب هذه الظاهرة من المشاكل الاجتماعية التي كثيراً ما تؤدي إلى تعاسة الأسرة بأكملها . وقد تعدت هذه المادية إلى الفن والذوق ، فأصبح المنزل يقدر بمقدار ما يجلب من إيراد شهري ، لا بجمال بنائه وحسن هندسته . كما تعدت إلى عدم تقدير الأدباء والناخبين من الشعراء والكتاب ولا أدل على ذلك من أن أتعس طائفة عندنا

من الوجهة المادية هي طائفة الادباء والشعراء .

وهناك ظاهرة أخرى نشأت أيضا عن استقرار الانسان في البيئة الزراعية ، وقوة الرابطة العائلية . تلك هي عادة التواكل وعدم الاعتماد على النفس ، وتتجلى هذه الظاهرة في أن كثيرين من الشبان يتزوجون قبل أن يتمكنوا من الحصول على رزقهم بأنفسهم ، ويعيشون في منازل آبائهم مدة طويلة دون أن يشعروا بالخجل أو العار ، بل تراهم يفخرون بذلك على أولئك الذين كونوا أنفسهم واستقلوا في حياتهم ، وهذه الظاهرة السيئة تناقض الحالة في بلاد الانجليز ، حيث يستقل الفرد بنفسه سواء كان رجلا أو امرأه بمجرد إكسابه الحصول على قوت يومه . وقد أدى هذا التخاذل وعدم الاعتماد على النفس إلى قلة الانتاج الشخصي ، لأن الشخص الذي لا يثق بنفسه ويعتمد على أهله أو أصدقائه قلما يكون لنفسه مركزا ممتازا أو ينتج لأتمته إنتاجا حسنا . وهما هم طلبة مدارسنا لا يتطلبون من مدرسيهم أكثر من إملاء مذكرات مقتضبة في المواد التي يدرسونها حتى يمكنهم حفظها واستظهارها ، أما الاطلاع والأبحاث الخاصة ، فأشياء ممقوتة بعيدة عن دائرة تفكيرهم . وهما هم شبان مصر المتعلمون لا مطمع لهم ولا أمل تصبوا إليه نفوسهم إلا وظيفة حكومية يلتصقون بمقعداتها ، ويخلدون إلى الراحة في كنفها بعيدين عن

معتك الحياة . أما الكفاح والجهاد ولذة الانتصار على الصعاب
والاعتماد على النفس فليس لكل هذا وزن لديهم . ولعل هذا
الاستقرار المنشود هو صورة أخرى للاستقرار الأول الذى
يشعر به ساكن البيئة الزراعية .

وقد أدى الاهتمام بمصلحة العائلة دون المصلحة العامة إلى
إغفال الكثير من موظفى الحكومة لأعمال وظائفهم بل واستغلالها
لمصلحتهم الخاصة أو لمصلحة عائلاتهم حتى إذا تعارضت هذه
مع مصلحة العمل ، وهذه ظاهرة شائعة لها أثرها فى سوء الإدارة
الحكومية وتتعقد الاجراءات المصلحية .

الحجاب فى مصر ومركز المرأة فى البيئة الاجتماعية

لم تكن المرأة الفرعونية متحجبة أو منعزلة عن الرجل ، إذ لم تر
أثرا للنقاب فى صورهم أو نقوشهم أو تماثيلهم كما أننا نعلم من
تاريخهم أن المرأة كانت تشارك الرجل فى الزراعة وكل ما يتعلق
بها من أعمال .

كذلك لا نجد للحجاب أثرا بين نساء العرب فقد كن
يقمن بالكثير من الأعمال التى تستلزم الاختلاط بالرجل
كالتجارة والرعى ، ومن المعروف عن العرب أن نساءهم تشارك
الرجال فى طعامهم إلا إذا كان هناك ضيف عريب عن القبيلة . ولا

نظن أيضاً أن الحجاب جاء مع الاسلام إذ ليس في الاسلام حض
على الحجاب كما نعرفه الآن . وقد كان بين النساء في صدر الاسلام
الشاعرات والتاجرات والمحاربات ، وكل هذا يستلزم الاختلاط
بالرجال . وقد حض الدين الاسلامي على وجوب تعليم المرأة
واحترامها ومراعاة حقوقها ، كما أن هناك بلادا يدين بعض
سكانها بالدين الاسلامي وليس الحجاب معروفا لديهم كالصين .
إذاً لا بد أن يكون الحجاب دخيلاً على المصريين ، ولا أخالني
مخطئاً إذا قلت إنه حدث من أحداث الحكم التركي في مصر
إذ المشاهد أن أغلب الدول التي خضعت للحكم التركي يشيع
بينها الحجاب وتنغزل فيها النساء عن الرجال . والواقع أن كلمتي
« حريم » و « حرمك » من أصل تركي . والثابت أن الأتراك
عند هجرتهم إلى بلاد الأناضول من سهوب آسيا حيث كانوا
منعزلين انغزالا كبيرا عن العالم الخارجي أرادوا المحافظة على
كيانهم الاجتماعي فلم يختلطوا كثيرا بالشعوب التي نزلوا بينها
وكانوا يفردون للغرباء من اليهود والنصارى أحياء خاصة ، كما
كانوا يعزلون ما بين منازلهم بجدران واسعة ، ويظهر أنهم أيضا
كانوا لا يودون أن يظهروا نساءهم للمسيحيين من سكان البلاد
فألبسوهن ذلك القناع المعروف Veil ، ولما كان الأتراك مشهورين
بقسوتهم والرغبة في إملاء إرادتهم على رعاياهم اضطرت الشعوب

التي حكمها الأتراك فيما بعد إلى مجارة الطبقة الحاكمة في تقنيع نسائهم وعزلهن عن الحياة الخارجية . ولا أدل على ذلك من أن الحجاب في مصر قاصر على الطبقة الراقية أو المتوسطة ، أولئك الذين كانوا يختلطون بالأتراك إبان حكمهم ، حتى الأقباط الذين يعرف عنهم عدم التحجب . أما الفلاحات المصريات فلا يعرفن الحجاب مطلقا ، إذ ترى الفتاة في الحقل تعمل إلى جانب الشاب دون خوف أو حياء ، ولا تغطي الفلاحة المصرية وجهها إلا عند مرور سيد من سادة البلد تري من مظاهر الاحترام له فقط ألا تظهر سافرة أمامه .

على أن مركز المرأة المصرية في الهيئة الاجتماعية لا يزال أقل بكثير من مركز الرجل ، وهذا شأن المرأة دائما في البيئة الزراعية وبيئة المراعى ، حيث لا يساوى العمل الذي تقوم به في الأهمية عمل الرجل . وقد رأينا عند الكلام على بيئة المراعى أن الرجل إذا رأي أنه يتحمل من المسؤولية في الحياة نصيبا أكبر من نصيب المرأة نظر إلى نفسه نظرة مكبرة ولم يقدر المرأة تقدير كبيرا .

كما أن الاشتغال بالزراعة يستلزم عدم تغيب الرجل عن منزله ، ومباشرة شخصيا للأعمال المتعلقة بالأرض وبذا لا تتاح الفرصة للمرأة للإشراف على شئون العائلة أو إظهار شخصيتها . هذا إلى أن طول انعزال المرأة عن الحياة الخارجية ، خصوصا

بين الطبقات المتوسطة والراقية قد أوجد هوة عميقة بين عقلية الرجل وعقلية المرأة ، مما جعل أغلب المصريين يغفلون شأن النساء وينظرون إلى الزواج كوسيلة للمتعة الشخصية أو (كواسطة) للرق والغنى . أما المشاركة الفعلية في الحياة الزوجية والصدقة المؤسسة على الاحترام وتبادل الآراء وتقارب العقلية فيكاد يكون معدوما .

نظام الحكم ويستلزم ازدهار الزراعة استتباب النظام ومراعاة الصالح العام والخاص ، ولذا كان الاشتغال بالزراعة دائماً يساعد على قيام حكومة منظمة تسهر على مصالح الناس وتساعد على رواج محاصيلهم وكثرة إنتاجهم . ومن المشاهدة أن المزارع سهل الانقياد يسلم أموره بكل بساطة ، إلى من يسوسها له ، كما أنه يحترم القانون ولا يسعى إلى كسره Law-abiding

ولذا كان من الهين على الفلاحين القدماء الخضوع لطغاة الملوك أمثال خوفو وخفرع ، كما أنهم الآن يخضعون كثيراً لملاك الأرض . وهذا ما يجعلني أجزم بطول دوام عهد الملكية في مصر .

الرياسة المصرية القديمة

كان الفلاح المصرى قديماً يروى أرضه ويزرعها مرة واحدة في السنة عقب الفيضان السنوى ، ولذلك كان من المحتم عليه أن

يعد العدة للمستقبل في فصل (التحاريق) فكان يخزن الغلة
حتى يحتاج إليها وقت الصيف ولذلك غرس في عقله وتأصلت
في نفسه أهمية المستقبل وما يجيء به من ويلات ومسرات، ويتبين
هذا في أن ما خلفوه من آثار ما هو إلا معابد Temples أو مقابر،
فالأولى يعرف منها الأحياء أوقات الفيضان والجفاف وأيام الزرع
والحصد . أما الثانية فهي أمكنة تحفظ فيها جثثهم مدى الأجيال
المقبلة تزورها أثناءها أرواحهم ، كما أن أكبر كتب الأدب
المصرية القديمة وهو « كتاب الموتى » يدلنا دلالة واضحة على
أن المصريين كانوا قوماً يدينون بأهمية المستقبل وما يطويه من
حادثات .

الفصل الثاني

الزراعة في «بيرو» القديمة

امبراطورية الإنكا The Inca

هناك في بقعة نائية من الأرض في مرتفعات بيرو Peru قامت مدينة قديمة منذ آلاف السنين قوامها الزراعة في الأودية الجبلية التي ترتفع اثني عشر ألف قدم عن سطح البحر . تلك هي مدينة الانكا . تلك الامبراطورية التي كانت تمتد من كولومبيا شمالا إلى شيلي جنوبا .

كان نظام هؤلاء الزراع اشتراكيا ، فقد كانت الأراضي والحقول والمراعي مقسمة إلى ثلاثة أقسام ، للشعب ثلث وللملك وبقساوسته ثلثان . وكانت زراعة الأرض واجب الجميع تحت مراقبة مندوب الحكومة الذي كان من واجبه ملاحظة توزيع المحاصيل بالتساوي بين الناس ، وكانت الحكومة توزع الملابس والحيوانات الأليفة على الشعب الذي كان يقوم بالعمل للمصلحة العامة ، كما كان الدفاع عن البلاد واجب كل فرد يمكنه حمل السلاح . وكانت المحاصيل الزراعية تخزن في مخازن الحكومة ويعمل إحصاء دقيق لكل ما تمتلك الحكومة من بضائع وأسلحة ، ولم يكن مصرحا لأحد أن يغير مهنته أو محل

سكنه إلا باذن من الحكومة ، وكان الامن مستتباً في طول البلاد وعرضها ولتسهيل انتقال الجيوس أنشئت الطرق الحربية على الجبال وفي الوديان . تلك الطرق التي لاتزال حتى الان موضع إعجاب الزوار من الأوربيين .

وقد مهر السكان كذلك في صنع الآنية الفخارية والمعدنية والأسلحة ، وكانوا ينسجون ملابسهم من صوف حيوان اللاما Llama والألباكا Alpaca ، وكان النساء يلبسن أحذية مكشوفة ويضعن أقراطاً في آذانهن .

وكانت الزراعة أهم مهن السكان في هذه البلاد حتى أن قوة الأباطور ونفوذه كانا يتوقفان على مقدار ازدهار الزراعة ، وكانت أهم غلاتهم البطاطس والموز والطباق والقطن والذرة ، كما كانوا يربون قطعاناً من حيوان الجوانا كو Guanaco .

وقد شيد القوم في مدينة Cuzco المقدسة شمال غرب بحيرة تيتيكاكا Titicaca معبدين للشمس ، والقمر ، الأول غطيت حوائطه وأبوابه بصفائح من ذهب ، وفي وسطه تمثال للشمس ذو وجه إنسانى تشع منه أشعة من الجواهر النفيسة ، أما معبد القمر فقد زين بالفضة ، وتوسطته آلهة القمر الفضية .

ومن هذا نرى أن عبادة الشمس والقمر كانت هي الشائعة بين الشعب الذى كان يعتقد أيضاً في آلهة أخرى كالرعد وقوس قزح والأرواح غير المنظورة ، ولذلك كان يلبس الناس تمائم

حول أعناقهم تقيهم شر الأرواح الخفية .

وكانت جثث الموتى تلف في جلود أو حصارٍ وتدفن تحت المنازل أو في مقابر خاصة للعظماء ، وكان يوضع مع جثة الرجل أسلحته وآلاته ، ومع جثة الأنثى آئيتها وأشغال يديها ، ومع الأطفال ألعابهم الصغيرة ، كما كانوا يقدمون للميت الزهور والفاكهة وينجبون اللاما . أما ملوك الانكا فكانت تحفظ جثثهم في معبد الشمس وزوجاتهم في معبد القمر لأنهم كانوا أولاد الشمس وبنات القمر .

هذه صورة أخرى لمدينة قديمة تشبه في دقائقها وأشكالها وعباداتها مدينة قدماء المصريين التي يظن أنها لم تكن أقدم منها كثيرا ، مدينة قامت على الزراعة في عزلة عن العالم الخارجي حتى جاء الفتح الأسباني سنة ١٥٣١ ففقد بيزارو Pizarro القاسي الخائن بالخيالة والدسيسة على ملك الانكا إذ ذاك المسمى Atahualpa إذ استقدمه إلى معسكره يحوط به ثلاثون ألفا من أتباعه ، ثم طلب منه اعتناق المسيحية ولما رفض سلط عليه مدافعه دون رحمة ، فأسقط أربعة آلاف من جنوده وفر الباقون ، وأسر الملك ، ولما طلب إطلاق سراحه وعده بيزارو بذلك إذا هو ملاً غرفة متوسطة الحجم ذهباً ، غير أن الملك بعد أن قام بما طلب منه ، خنقه أتباع بيزارو وهو في السجن دون شفقة أو رحمة . وهذه أكبر وصمة عار في جبين الفتح الأسباني

الفصل الثالث

الزراعة في الصين

ننتقل الآن إلى دراسة مدنية أخرى قديمة قامت أيضاً على الزراعة في ظروف شبيهة بظروف المدينة المصرية القديمة من حيث حصانة موقعها ، وعدم تعرضها للأخطار الخارجية ولو أنها تختلف عنها في اتساع رقعتها ووصولها إلى بقاع أكثر امتداداً من وادي النيل الضيق .

وإذا بدأنا بدراسة العوامل الجغرافية التي أدت إلى قيام المدنية في الصين ، وضح لنا أن هذه البلاد عظيمه الاتساع يحدها من الجنوب الغربي هضاب عالية تكاد تكون خالية من الحياة كهضبة التبت التي ترتفع عن سطح البحر ثلاثة أميال تقريباً ، وتتدرج هذه المرتفعات في الانخفاض إلى الشمال حيث تصير بقاعاً شبه صحراوية لا يحدها البصر . أما في الجنوب فتحميها مرتفعات الهند الصينية وهضابها المغطاة بالغابات الكثيفة المجهولة وكذلك يحميها من الشرق أوقيانوس عظيم لا يعلم ما وراءه ولم يجرأ الإنسان على الاقتراب منه أو التفكير في عبوره .

وإذا انتقلنا من حدود الصين إلى داخل البلاد تبيناً أنهاراً

ثلاثة تنبع من الهضاب والمرتفعات الغربية وتنساب في السهول الشرقية إلى المحيط الهادى ، تلك هى أنهار هوانج هوا في الشمال ويانج تس كيانج قى الوسط وسى كيانج فى الجنوب .

وفى وادى نهر وای هو (Wei=clear) أحد فروع هوانج جو توفرت تلك الظروف الكثيرة التى تلائم ظهور المدنية الأولى . فوادى النهر تحميه الأراضى شبه الصحراوية التى يمكن اعتبارها حصونا طبيعية فى تلك الأزمان الخالية ، ثم أن الفصول فى تلك الجهة تتغير تغيراً محسوساً يبعث على النشاط والعمل والتفكير فى الغد ، وبذا ترقى القوة المفكرة عند الانسان ، كما أن ماء النهر يشجعه على زراعة الأرض ، ويحتم عليه فى نفس الوقت حفظه لتحسين الانتفاع به . ولذا فليس بالعجيب أن يشتغل آدم الصين كما اشتغل آدم مصر والعراق بالزراعة فى بدء خروجه عن حاله الهمجية القديمة .

ولقد تشابهت المدينتان المصرية والصينية ، فى دور الطفولة ، وما درجتا من مرحلة النشوء حتى ظهر بينهما خلاف محسوس لعل مرجعه بيئة كل منهما . فوادى النيل ضيق يلائم نشوء المدنية ويساعد على ارتباط السكان وانتشار الأفكار بينهم إلا أنه يعوق اتساع المدنية وانتشارها إذا ما قويت وكبرت . أما موطن المدنية الصينية الأول وهو حوض نهر (وى هو) فإنه يتصل

شرقا بالسهل الأعظم للصين في حوض نهر هوانجيهو الأدنى ،
وهو من أكبر سهول الأنهار في العالم ، فكان ميسورا على
الصينيين بعد نموهم واتساع حضارتهم أن يسيروا مع النهر إلى
بقاع خصبة عظيمة ، لا تختلف في ظروفها المناخية أو تربتها
عن بلادهم الأولى ، حيث زرعوا الأرض كما كانوا يفعلون
وركزوا أنفسهم في وطن ثان شبيه بالوطن الأول .

في هذا السهل الفسيح من الصين ظل الصينيون من ألفين
إلى ثلاث آلاف سنة قبل الميلاد يشتغلون بالزراعة وينشئون
مدنية عظيمة واسعة النطاق ، كان قوامها الأرض وما تنتجه .
وقد يبدو لنا غريبا أن تظل المدنية الصينية تلك الأحقاب
الطويلة قاصرة على حوض النهر الشمالى ولا تتعداه إلى أحواض
الأنهار الجنوبية الأخرى غير أن نظرة واحدة إلى جبال تسن
لنج الممتدة من الغرب إلى الشرق في حوض نهر يانج تسي كيانج ،
وما يقع إلى جنوبها من غابات كثيفة تظهر لنا صعوبة الاتصال
بين شمال الصين وجنوبها

ولكن تلك العوائق الطبيعية لم يتعد أثرها تأخير المدنية
الصينية مدة من الزمان عن الانتشار إلى الجنوب ، فسرعان ما
طغت الأقوام الشمالية على الجزء الجنوبي من الصين وأصبح
الكل وحدة متجانسة . لأن هذا الجزء من الصين شبيه بجزئها

الشمالي ، يرويه نهران كأخيهما الأول وينسابان في حوضين
خصيين يصلحان للزراعة كالحوض الأول ، وبذا لم تكن
مشكلات الزراعة والرى التى قامت فى حوض هذين النهرين
بغريبة على قوم مارسوا هذه المهنة ودقائقها ثلاثة آلاف سنة من
قبل ، وما وافى الميلاد حتى كانت تسيطر على الجنوب والشمال
معاً أسرة Han الصينية التى كانت معاصرة للدولة الرومانية
فى الغرب .

وقد واجهت هذه الأسرة نفس المشكلة التى كانت
تواجهها الدولة الرومانية ، وهى كيفية حكم إمبراطوريتها الواسعة
وربط أجزائها بظامحكما ، وقد تغلبت الدولة الرومانية على هذه
المشكلة بإنشاء الطرق الحربية العظيمة التى تسهل الانتقال
بين أجزاء البلاد . غير أن إمبراطورية الصين وجدت فى نهر يانج
تسى كيانج وفروعه طرقاً هامة للاتصال فاستغلتها فى ربط أنحاء
البلاد ببعضها ، وبذلك لا نخطئ إذا قلنا « إن الصين بلاد
الأنهار » لا لأنها مليئة بالأنهار بل لأن الأنهار كان لها أثر
عظيم فى توحيدها فى فترة طويلة من تاريخها ، ولولاها لما كان
فى الامكان أن تصبح الصين وحدة متجانسة من شمالها إلى
جنوبها كما هى الآن . ولذا لم تسكن القوة التى ربطت أجزاء
الصين ببعضها بعض قوة حكومية مركزية ، بل قوة التجانس

بين الأقاليم في العادات والآراء وأساليب الحياة . والحق أن هذا التجانس الاجتماعى كان وليد تجانس العوامل الجغرافية التى سادت أجزاء الصين إبان تاريخها الطويل .

غزوات
المغول

ولقد تعرضت الامبراطورية الصينية فى فترات من تاريخها لغزوات القبائل المغولية كما تعرضت الدولة الرومانية ، وقد كان لهذه من نهري الرين والدانوب ومن القلاع المنيعه التى شيدتها حصونا لدفع هجمات المغيرين ، غير أن الصين بنت لصد هجمات المغول سورها العظيم الذى يمتد من خليج بتشيلي إلى حدود هضبة التبت فى مسافة طولها ١٦٠٠ ميل تقريبا . وبذا أمنت شر الغارات مدة من الزمان . غير أن النهاية كانت آتية لاريب فيها إذ تحرك سكان الهضاب الغربية وقاموا يسيطرون على سكان الهضاب المجاورة لجبال الطاي ثم اندفعوا إلى السهول الشرقية . وتمكن « كوبلاى خان » سنة ١٢٨٠ من السيطرة على الصينيين والتتار .

تأثير البيئة
الجغرافية فى
الغزاة
والفاتحين

غير أن تلك الغزوات المغولية لم تؤثر فى الصين تأثيراً كبيراً ومثلها فى ذلك مثل مصر التى لم تؤثر فيها غزوات الأقاليم الغربية عنها كالهكسوس مثلاً ، وكما عبد الهكسوس آلهة المصريين واتبعوا تقاليدهم وعاداتهم ، كذلك اندمج غزاة الصين فى أهل البلاد وتضاءلت شخصية الفاتحين أمام شخصية السكان ،

وما ذلك إلا لأن المدينتين الصينية والمصرية المؤسستين على الزراعة ، كانتا أرقى بكثير من مدينتي الأقوام المجاورة والمؤسسة على الرعي فقط ، كذلك كانت الأنظمة الاجتماعية فيهما وليدة آلاف السنين ، راسخة قوية إلى حد تضاءلت أمامه أنظمة أمم ليس لها من فضل تدعيه غير القوة الجثمانية فقط .

تعلق الصينيين
بالأرض

وقد ظل الصينيون زراعا فقط ولم يكن للبحر أثر في توجيه أفكارهم إليه ، إذ لم تكن بلادهم فقيرة تضطرهم إلى الالتجاء للبحر ، كما حدث مع أهل الشمال The Norsemen ، كما أن الأرض لم تكن ضيقة بحيث يفرون منها إلى البحر إذا هاجمهم غيرهم ، بل كان في بلادهم متسع للجميع ، كما أن شواطئهم لم تكن كثيرة التعاريج بحيث تستميلهم للملاحة وركوب البحر كالأغريق . وبذلك تعلق الصينيون بالأرض واصطبغت حياتهم بصبغة الزراعة خلال أربعين قرنا أصبحوا بعدها وحدة متجانسة ولم يتناثروا كما تناثرت أجزاء الدولة الرومانية ، تلك التي كانت خليطا غير منسجم .

آثار الزراعة في الصين

أولا - قوة الرابطة العائلية عندهم ، وجههم للكثائر من النسل . ولعل هاتين الظاهرتين قد تاصلتا أيضا بغزو قبائل

اهمعة للصين ، إذ يشجع الاشتغال بالرعى على الاكثار من
النسل وارتباط العائلة ارتباطا وثيقا حتى يمكنها الاشراف على
القطيع الكبير العدد ، وقد حض نبى الصين « كنفشيوس »
أيضا على الاكثار من النسل واحترام الأبناء للآباء . وقد كان
لهذه الظاهرة أثر سىء فى الحالة الاقتصادية فى الصين إذ
أصبحت البلاد مزدحمة بالسكان إلى حد انحط معه مستوى
المعيشة وكثرت الوفيات .

ثانياً — ظهور النظام الأبوى Patriarchal System بينهم
وهم فى ذلك يشابهون المصريين أيضا لأن عمداء العائلات
الكبيرة عندنا لهم نفوذ كبير على أفراد الأسرة ، وكلتهم نافذة
على الصغير والكبير لدرجة أن الحكومة المصرية تعترف
اعترافا غير مباشر بهذا النظام إذ تعين عمد البلاد من الأسر
الكبيرة التى يكون لها احترامها ونفوذها فى القرية ، غير أن هذا
النظام فى الصين قد انتشر وتأصل بحيث أصبح الأبناء يعبدون
آباءهم ويقدمون أرواحهم بعد موتهم . Ancestor Worship

ثالثاً — إيثار المصلحة الخاصة : فالصيني يشابه المصرى فى
تفضيله مصلحة أسرته على مصلحة الحكومة وذلك لقوة الرابطة
بين أفراد الأسرة . غير أن هذه الظاهرة قد قويت فى الصين
أكثر من غيرها من البلدان الزراعية الأخرى لأن الحكومة

المركزية لا يمكنها أن تنشر نفوذها وتشعر الناس بوجودها
لعظم اتساع البلاد وامتداد أطرافها .

رابعاً — شدة صبرهم وطول أناتهم فإن من شيمة الزارع أن
يرقب البذور تنمو ببطء ولا تؤتي ثمرها إلا بعد شهور عدة وإنه
ليرقب ذلك في صبر جميل وابتسامة راضية ، ولذلك تجد الصيني
يبدأ في عمل زخرف من الزخارف وهو يقول « إذا هلكت قبل
إنجازه أتمه ولدي » ، وقد كان لهذه الظاهرة أثر في صبرهم على
المسكاره وتحملهم للصعاب وعدم تبرمهم بالحياة مهما تعكر لونها .

خامساً — المحافظة على القديم : ولعل في طول انعزالهم عن
العالم تفسيراً لهذه الظاهرة ، فقد لبثوا قروناً طويلة بعيدين
عن العالم لا يزورهم تجار ولا يهددهم غزاة حتى كانوا يعتقدون
أن بلادهم مركز العالم The Middle Kingdom ، كما كانوا
يعتقدون أنهم هم الممتازون Jins or chins = The Men .

تلك مدنات عاصرت فجر التاريخ ، تفلح الأرض وتنبت
الحب ولا تزال قائمة — مع تعاقب الأجيال — تنطق بأثر
البيئة في الانسان وتحمل طابع « الزراعة » واضحاً جلياً .

ومن المحقق أن « الزراعة » سائدة في أغلب بقاع العالم
كلما سمحت ظروف التربة والمناخ بذلك . كما أن الاعتماد على

« الزراعة » فقط لا يكاد يوجد . فجماعات الصيد في الغابات الاستوائية يزرعون أحيانا رغبة في الاحتياط للطوارئ حين يتعذر عليهم الصيد . كما أن بعض الرعاة في سهوب آسيا يخصصون جانبا من أرضهم للزراعة ويسمدون الأرض بسماد الحيوان . كذلك نجد أعراب الصحراء في الواحات يزرعون ويرعون القطيع كما أن أمم أوروبا تزرع وتشتغل بالصناعة والتجارة . وهكذا تجد مهنة الزراعة منتشرة في أنحاء الأرض ولا يمكن أن يستغنى عنها الانسان لأنها مورد غذائه الأساسي . وإذا تعذر على أمة إنتاج ما يكفيها من الغلات الزراعية اعتمدت على أمم أخرى بعيدة أو قريبة في استيراد ما تحتاج اليه . وقد سهل هذا الأمر ما وصل اليه العلم الحديث من اتقان طرق الاتصال حتى كاد يصل بها إلى درجة الكمال .

وسنحاول الآن أن نلم بببئات زراعية أخرى في جهات متباينة من العالم حتى نعلم أهمية هذه المهنة ومبلغ احتياج الانسان اليها في كل أدوار حياته .

الزراعة في غابات الامزونه الغريبة

البورو The Boro

يعيش أفراد هذه القبيلة في جماعات صغيرة لا يتجاوز كل منها الثلاثين في وسط الغابات الاستوائية الكثيفة حيث يحرقون الأشجار الكثيفة ويزيلون الأعشاب التي تغطي الأرض ، ثم يقوم النساء بزراعة المانيوك والكوكا والطباق ، ولا تدوم مزرعتهم هذه ، ويلا لأن القوم لم يبتدعوا الوسائل التي يقاومون بها نمو النبات السريع في الغابات الاستوائية ، ولذلك تنتقل الجماعة بعد سنتين أو ثلاث على الأكثر إلى بقعة أخرى حيث تكون الأولى قد طغت عليها النباتات وأصبحت لا تصلح للزراعة . وتسكن كل جماعة من هذه الجماعات في منزل واحد كبير يشيدونه من الأخشاب المتوفرة لديهم ، ويخصص لكل أسرة ناحية خاصة من المنزل تضع فيها آنياتها وأسلحتها .

ويقوم النساء بعمل الآنية من الطين المجفف كذلك يصنعن السلال — لحفظ الحاجيات — من أغصان الأشجار ، ويعمل الرجال عصي الصيد والسهم من الأخشاب أيضا إذ لا تتوفر لديهم الأحجار الصلبة .

وهكذا نرى هذه الجماعات المشتغلة بالزراعة في الغابات

الاستوائية لاتزال متأخرة جداً، بحيث لا يمكن أن نطلق عليها اسم «قبائل» بالمعنى الصحيح وإذا تجاوزنا في تسميتهم كذلك فانما لنفرقهم عن الجماعات الأخرى المشتغلة بالجمع التي سبق الكلام عليها. فهم يعتمدون على الطبيعة إلى حد كبير في الحصول على غذائهم بصيد الحيوان والأسماك وجمع الثمار، والزراعة عندهم لاتزال في مرحلة البدء ولم يستطيعوا ابتكار أية وسيلة يستغلون بها الأرض استغلالاً صحيحاً، ولا أدل على ذلك من أنهم يتركون موطنهم بعد فترة وجيزة إلى موطن آخر لأن الغابة قد طغت على مزرعتهم.

قبائل الطراك The Kazak

يشغل هؤلاء القوم بالزراعة إلى جانب الرعى كما كانت الأرض خصبة، وتروى الأرض عن طريق المجارى المائية. وتنقسم الأرض المجاورة للقنوات المائية إلى قطع صغيرة يزرع فيها القمح والشعير والذرة، ويقوم بالزراعة فلاحون من غير رجال القبيلة، وفي بعض الأحيان يقوم بهذا العمل بعض رجال القبيلة من الفقراء الذين لا يملكون قطعاً للرعى، ويعتمدون في الحصول على اللبن واللحم على الأسر الغنية التي يشتغلون في خدمتها.

وإذا كانت مياه القنوات أكثر انخفاضاً عن سطح الأرض المنزرعة استعملت السواقي لنقل الماء، كما تنقل أحياناً على الكتاف في قرب من جلود الحيوانات، ويحرق القوم الأرض بمحارث بسيطة تجرها الجياد، ويمهدون الأرض بألواح خشبية تشبه الزحافة عند الفلاح المصري، كما يحصدون الغلة بأيديهم ويدرسونها بخيولهم ثم يخزنون المحاصيل في مخازن كبيرة تقوم إلى جانبها طواحين تديرها قوى المياه.

وهكذا ترى الرعاة أيضاً لا يستغنون عن الزراعة في توفير طعامهم بل يلجأون إليها كلما أمكن ذلك

الزراعة في المجرىات المائية

تكاد تكون الزراعة في هذه المناطق هي المهنة الأساسية للسكان كما في الهند والصين، وتقوم الزراعة غالباً في أحواض الأنهار الكبيرة الخصبة، مثل الكينج والسند في الهند، والميكنج والمينام في الهند الصينية، والهوانج هو واليانجتسي كيانج في الصين ولا تزال الزراعة في هذه البلاد متأخرة لا تستعمل فيها الوسائل العلمية الحديثة، ولذلك كان إنتاج الفدان في الغلة الواحدة ضعيفاً ونلاحظ ذلك إذا أوزنا محصول القمح في الهند، الذي قلما يزيد

عن أردبين للفدان الواحد ، بمحصول الولايات المتحدة الذي يزيد على ستة أرباب ، وذلك راجع الى أن الارض في الاولى مجهدة لقدم الزراعة ولعدم استخدام الوسائل العلمية فيها ، أما أرض الولايات المتحدة فهي بكر وتطبق عليها أحدث الأساليب العلمية .

وفي بعض الأقاليم الموسمية كاليابان يقوم الفلاح بزراعة الارز وتربية دودة القز للحصول على الحرير في وقت واحد ، ويسمى هذا « بالانتاج المزدوج » Mixed Farming وذلك لاستغلال الأرض إلى أقصى حد ممكن ، كما أنه في الكثير من البلاد الهندية والصينية يتبع الزراع « الدورة الزراعية » Rotation of Crops وذلك بزراعة أنواع مختلفة من الغلات على التعاقب حتى لا تفقد الأرض قوتها .

وأهم الغلات الزراعية في الجهات الموسمية الأرز في دالات الأنهار والشاي على سفوح المرتفعات .

الزراعة في أوروبا

توجد الزراعة في أغلب بلاد أوروبا بجانب الصناعة ، غير أنها قد تكون في المرتبة الثانية لقلة الأراضي القابلة للزراعة ،

كما في إنجلترا التي لا تنتج أرضها من المواد الغذائية إلا ما يكفي لاستهلاك يوم ونصف اليوم في الأسبوع ، والتي تعتمد في الحصول على المواد الغذائية على كندا والولايات المتحدة والأرجنتين وأستراليا ونيوزيلاند . وقد تكون الزراعة في المرتبة الأولى كما في فرنسا والروسيا ورومانيا . وفي جميع الحالات تزرع الأرض بأحدث الطرق العلمية ، فتستعمل الأسمدة المخصصة للأرض ، وتستخدم الآلات الدقيقة في الحرث والري والحصد والدرس . وبذلك تستغل الأرض استغلالاً تاماً Intensive Agriculture كما أن الفلاح الأوروبي يعيش في وسط صحي ، وهو معتنى به ، وله نقابات زراعية قوية توفر له أسباب الراحة ورغد العيش ، وتصرف له محاصيله في أسواق رائجة ، وتمده بما يحتاج إليه من آلات وأدوات زراعية وبذلك كان مستوى معيشة الفلاح الأوروبي خصوصاً في هولندا وإنجلترا والدانيمرك عالياً جداً . وفي كل هذه البلاد يتبع نظام (الانتاج المزدوج) في الزراعة ، فهم يرعون الماشية والأغنام ، ويستفيدون بمنتجاتها Dairy Produce إلى جانب فلاحه الأرض .

ملكية الأراضي

من دراستنا السابقة للزراعة والبيئات المختلفة يظهر لنا

أن الجماعات المتأخرة التي تشتغل بالزراعة اليدوية والغابات الاستوائية، كالبورو مثلاً، لم يصلوا إلى مستوى القبيلة، بل كانوا يعيشون في جماعات صغيرة متناثرة كثيرة التنقل من بقعة إلى أخرى، ولا يرتفعون كثيراً في الكيان الاجتماعي عن الجماعين والصيادين في الغابات الاستوائية أو الجهات القطبية.

وأمثال هؤلاء لا يهتمون كثيراً بملكية الأرض إلا بمعناها العام، أي أن يكون لكل من هذه الجماعات حدود خاصة قلما تتعداها إلى غيرها. غير أن الأفراد أو الأسر داخل المجموعة لا يمتلكون شيئاً من الأرض، لأن إقامتهم في الجهة الواحدة لا تمتد إلى أكثر من سنتين أو ثلاث فلا يقوم بينهم ملاك أو مستأجرون بالمعنى الصحيح، ولو أن وجود العبيد بين المشتغلين بالزراعة في بعض جهات أفريقيا الاستوائية يدل على أن نظام امتلاك الأرض واستخدام من يزرعها يكاد يكون أكثر ظهوراً في أفريقيا الاستوائية منه في أمريكا الجنوبية في العروض المائلة.

كذلك يدلنا تاريخ جزائر پولينيزيا Polynesia في المحيط الهادي الجنوبي أنه كانت هناك طبقة أرستقراطية من ملاك الأرض يؤجرونها ويستغلونها بنظام إقطاعي، ولكن تفاصيل ذلك النظام غير معروفة لدينا. وكل ما يظهر لنا من دراسة نظام الأرض في جزيرة تاهيتي Tahiti مثلاً يدل على أن الأرض

ينظر إليها ككتلة يملكها الجميع أكثر منها قطع مستقلة يملكها الأفراد .

غير أن الجماعات الزراعية التي وصلت إلى استخدام المحراث بدت لها أهمية الزراعة ، وإمكان الاستقرار في قطعة خاصة مدة طويلة ، وبذلك بدأ أقوىاء القوم ينظرون إلى قطع الأرض الأكثر صلاحية . ويمتلكونها ، ثم يؤجرونها أو أجزاء منها إلى غيرهم ممن ليس لهم ممتلكات ، وبذلك ظهر نظام الملاك والمستأجرين ممن ليس لهم أرض Landowners & Landless وأصبح لكل أسرة أجزاء خاصة من الأرض تتفاوت حجما حسب كبر العائلة وقوتها وأكثر ما يتمثل هذا النظام في مقاطعه كوتشين Cochin على ساحل ملبار في الهند ، كما نراه قائما في مصر والعراق والصين . وبظهور هذا النظام بدت الحاجة إلى تحسين الزراعة باستعمال وسائل الري المختلفة كالشادوف والساقية ، كما تفنن الزراع في طريقة زراعة الأرض فعرفوا قيمة الدورة الزراعية Crop Rotation في خصب الأرض وكثرة إنتاجها ، كذلك اهتموا بدرس الغلال ووسائل خزنها وطحنها .

وهكذا تتطور الزراعة من أبسط أشكالها في الغابات الاستوائية إلى أرقى مظاهرها في أوروبا والولايات المتحدة ، وبتطورها هذا تتغير الأنظمة الاجتماعية وتصبح أدق وأكثر تعقيدا .

من الكتب التي لا تملك

الباب الرابع

سكان الشواطئ

COAST PEOPLES

سكان الشواطئ

البحر ينظر سكان الشواطئ إلى البحر كمورد لغذائهم وملبسهم ووقودهم ، ومسرح لبطولتهم ومغامراتهم ، وطريق إلى الثروة والشهرة . والبحر ذو تاريخ أبدي ، وإذا ما رجعنا ببصرتنا إلى الوراء اختفى البحر وأقوامه تحت ضباب القدم ، فما علمنا عن بدئه شيئاً ، وإذا امتد بنا الخيال إلى ما تحبئه الأيام في الأجيال القادمة استحال علينا التكهن بمصير تلك الشواطئ البحرية التي يعيش عليها الآن أبناء الأرض والبحر ، إذ ربما طوتها الأمواج فأصبحت سراً من أسرار الأبدية

والآن يسوقنا حديث البحر إلى بقعة نائية من المعمورة تعيش فيها جماعات مشغلة بصيد الأسماك حيث نرى أثر البحر منقوشاً على كل مرفق من مرافق الحياة .

الفصل الأول

النوتكا The Nootka

في كولومبيا البريطانية

الموقع في شمال غرب أمريكا الشمالية على شاطئ المحيط الهادى بين جنوب الاسكا وشمال كاليفورنيا تسكن أقوام كانت حتى القرن الحالى تعيش فى معزل عن العالم بحيث لم يتأثروا بالمدينة الحديثة إلا منذ خمسين عاماً تقريباً، حين بدأت أساليب الحياة العصرية تجد سبيلاً إلى تلك البقاع النائية . ومع ذلك لا تزال الغالبية من هذه الاقوام معتمدة على البحر والانهار الصغيرة التى تصب فيه فى طعامهم ، ويعيشون فى جماعات كبيرة مستقرة لها منازل مشيدة من الاخشاب الصلبة . وأظهر هذه الجماعات وأغناها أولئك الذين يعيشون بين جزيرة فنكوفر عند مصب نهر فريزر والجنوب الشرقى لآلاسكا .

وتشبه هذه الجهات فى تضاريسها شواطئ الترويج الغربية التضاريس

من حيث كثرة خلجانها الصغيرة المسماة فيوردات ، والتي تمتد إلى مسافات طويلة داخل الشاطئ ، وتطل عليها مرتفعات عالية تأخذ في الارتفاع إلى الداخل حتى تبلغ خمسة آلاف قدم . وتتناثر في المحيط قرب الشواطئ جزائر متفاوتة الحجم ، مثل جزيرة فنكوفر ، وجزائر الملكة شارلوت التي تعتبر بقايا الشاطئ القديم للقارة قبل أن يطغى عليه البحر .

ويشبه مناخ هذا الاقليم مناخ الجزائر البريطانية ، إذ تسود عليه الرياح العكسية الجنوبية الغربية طول السنة فتسقط عليه وابلا من الأمطار خصوصا في فصل الشتاء ، كما يدفعه تيار اليابان الدافئ ، ولذلك كان جليده قليلا قصير الأمد . وقد أدت هذه العوامل المناخية إلى نمو الأشجار القطبية الضخمة المستقيمة على سفوح المرتفعات ، وأخصها شجر الأرز Cedar والشوكران Hemlock ، تلك التي يبلغ ارتفاعها أحيانا مائتين وخمسين قدما

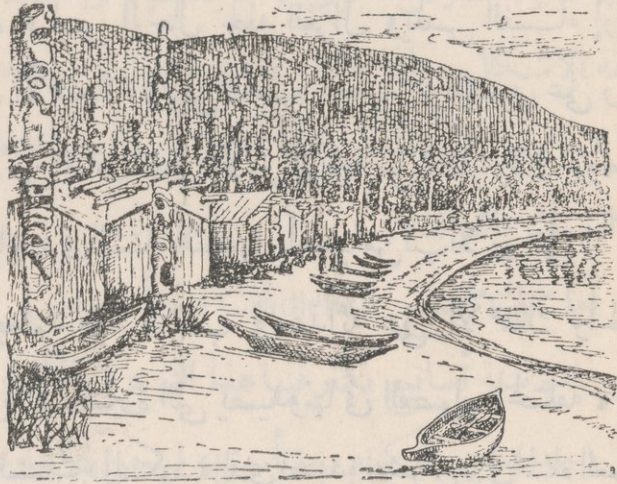
المناخ

ويكثر في هذه الجهات الغزال والوعل غير أن غنى البحر بالأسماك المختلفة قد صرف نظر القوم عن صيد حيوان البر وجعلهم يعتمدون على البحر اعتمادا كليا ، إذ تكثر به الرنجة والكود كما تكثر بالخلجان الصغيرة والأنهار كميات كبيرة من السامون Salmon خصوصا في فصل الصيف ، كما يكثر في الربيع سمك الشمعة Candlefish وهو سمك صغير لا يزيد طول الواحدة

حيوان البر والبحر

منه عن تسع بوصات ويستخرج منه الزيت . وتعيش على
هذه الأسماك الصغيرة الحيتان الضخمة ، وأسد البحر وأبقاره
ولها في حياة القوم أهمية خاصة .

وتسكن هذه القبائل في قرى صغيرة بصفة دائمة غير أنهم
ينتقلون في أثناء السنة من مكان إلى آخر ، ففي الشتاء يعيشون
في القرية الرئيسية الأصلية . حيث يقضون الوقت في صنع القوارب
وآلات الصيد والشباك وإقامة الولائم والاحتفالات . ومن
أوائل الربيع الى آخر الخريف ينتقلون في بقاع مختلفة حيث
يبنون مساكن مؤقتة لصيد الأسماك .



القرية

وقد أدت طبيعة البلاد الجبلية في الداخل إلى المعيشة قرب
الشاطئ حيث يبنون منازلهم في صفوف طويلة مواجهة للبحر ،
ولكل منزل رصيف بحري مستند إلى قوائم خشبية ، ويتراوح

عدد منازل القرية الواحدة بين عشرين وخمسين منزلاً أو أكثر، ويقطن في كل منها أكثر من أسرة واحدة، وقد يبلغ عدد سكان المنزل الواحد مائة نفس.

وهذه المنازل إما مربعة أو مستطيلة الشكل، ولها سقوف منحدرية حتى لا يبقى عليها ماء المطر، وكلها مشيدة من الأخشاب الضخمة، خصوصاً خشب الأرز، وتعمل في بنائها آلات من الخشب أو العظام.

أما ملابس هؤلاء فبالرغم من توافر مادتها فإنهم لم يبتكروا لها طابعاً خاصاً، ولم يعتنوا بتفصيلها كما يفعل الأسكيمو مثلاً، فيلبس الرجال جلد الغزال ويلبس النساء إزاراً من ألياف الأشجار، وليس للجميع أحذية، ويلبسون على رؤوسهم قبعات من ألياف شجر الأرز للوقاية من المطر وقت نزوله، وإذا اشتد البرد في الشتاء التحفوا بأغطية من لب الأرز على أكتافهم.

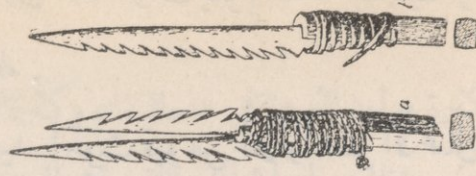
الملبس

ويعتمد هذا الشعب في غذائه على الأسماك والحيوانات البحرية الكثيرة التي يصيدونها في الفصول المختلفة، ومن أهم أنواع السمك «الكود» الذي يصيدونه بجرابهم في المياه العميقة بعد أن يستميلوه إلى سطح الماء بطعم من سمك الرنجة. أما سمك الرنجة فيكثر في الخليجان الصغيرة في مارس ومايو حيث يصيدونه بشباك أو بواسطة ألواح من الخشب لها أطراف مسننة يدفعونها

الغذاء

الكود

في المياه المليئة بالسمك . كما في الشكل



وسمك السامون Salmon هو أهم أنواع الأسماك عند هذه السامون الجماعات ويصيدونه أحياناً في قواربهم الصغيرة ، بواسطة الصنابير غير أن أجدى طريقة لصيده هي تتبعه في مجارى الأنهار العذبة عند هجرته إليها في الربيع والخريف ، وهو وقت (البيض) ، حيث يتجمع بكيات كبيرة في المسالك المائية الضيقة ، فينبون لصيده سدوداً تعترض المجرى ، ثم يقتضونه في شباك ومصائد مختلفة الاشكال . وإذا خلت إحدى القنوات من هذا السمك نقلوا إليها بيض السمك من قناة أخرى في الموسم الخاص ليكثر فيها السمك بالتوالد .

أما سمك الشمع Candlefish فيبدأ صيده في منتصف مارس لمدة ستة أسابيع يكثر فيها هذا النوع في الأنهار .

وبعد صيده يتركونه مدة أسبوع ليتعفن ثم يغلونه في أوان خشبية فيطفو زيت الذي يجمعونه ويحفظونه في أوعية خشبية ويضيفونه إلى الأسماك المجففة وقت الطعام .
ويلاحظ أن وقت صيد السمك عندهم هو النصف الأخير

من السنة ، وفي هذا الوقت يقوم النساء بتجفيفه وحفظه وتجهيزه
لفصل الشتاء .

صيد الحوت أما صيد الحوت فهو من أهم وأخطر الأعمال ، ولا يصيده
إلا فئة خاصة من الناس ترت عن آباءها القدرة السحرية على
صيده . وقبل موعد الصيد في أبريل يعتكف رئيس جماعة
الصيد في أحد المعابد ، ثم يدهن جسمه باللون الأحمر ، ويلبس
رداء من جلد أبقار البحر ، وينتخب مساعديه من أشجع رجال
القرية ، ثم يخرجون في قوارب يسع كل منها ثمانية أشخاص ويقودهم
زعيمهم إلى الجهات التي يكثر فيها الحوت . فاذا ظهر الحيوان من
بعيد اقتربوا منه في حذر شديد ، ثم يقذفونه بمخاطفات خاصة
ذات سنان مثلثة الشكل ، ثم يوالون قذفه كلما ظهر على وجه الماء
حتى يقتلوه ثم يجروه إلى الشاطئ — ويعتبر صيد الحوت من
أشق الأعمال وأخطرها إذ طالما ضرب الحيوان القارب بذيله
الضخم فخطمه وقتل من فيه .

القارب ولما كان صيد السمك والانتقال من جهة إلى أخرى في
البحر من أسس حياة القوم اهتموا بعمل القوارب من جنود
الاشجار الضخمة التي يقطعونها ويجوفونها ويجرون عليها شتى
العمليات اللازمة بآلاتهم الحجرية أو قرون الغزلان الحادة .
وتتفاوت أحجام القوارب حسب الحاجة ، وقد يبلغ طول بعضها

سبعين قدما وتسع مائة شخص ، أما القلاع فيتخذونها من الاشجار
ولبها .

النظام
الاجتماعى

ورغم كثرة موارد الثروة فى هذه البقاع وكثرة السكان فيها
نسبيا لم يظهر بينهم نظام سياسى شامل فالقرية هى الوحدة الاجتماعية
عندهم ، وليس ما يربط أسراتها المختلفة إلا تشابه فى اللغة والعادات
والتقاليد . وكثيرا ما تقسم القرية الواحدة بين العائلات المتنافسة .
وفى كل قرية أسرة من النبلاء تمتلك جهات خاصة لصيد
السماك والحيوان البرى . وجمع الثمار المختلفة ، ومن هذا تتكون
ثروتها التى تؤهلها للظهور بمظهر العظمة فى الاحتفالات التى تعقد
فى القرية — ذلك المظهر الذى تتوقف عليه رفعة الأسرة أو
خفضها بين الاسر الاخرى الاقل شأننا .

وقد تمت الاسرة الشريفة فى قرية ما بصلة إلى أسرة أخرى
فى القرية المجاورة ، وعندئذ يتبادلون الألقاب والاسماء والدعوات
إلى الحفلات المختلفة . وكثيرا ما تتمتع كرائم الأسر فى قرية
بامتيازات وحقوق فى عدة قرى أخرى .

وقد تفقد الاسرة بعض ما كان لها من الامتيازات لنقص فى
ثروتها لم تستطع معه متابعة الظهور بما تقتضيه مكانتها ، على حين
تقفز أسرة أخرى إلى مرتبة الشرف ، وتحوز الألقاب الفخرية لأنها
تفوقت فى الاحتفالات الشعبية . من ذلك نرى أن الحواجز بين الطبقات

لم تكن شديدة، بل كان من السهل ارتقاء الأفراد من طبقة اجتماعية إلى طبقة أخرى أرفع شأنًا ، إذا مكنتهم ثروتهم من ذلك ، كما كان التزاوج بين الطبقات الشريفة والعامية مباحًا ولو أنه مكروه . ويستمد رئيس الأسرة الشريفة سلطته من أفراد أسرته وأتباعه ، غير أن سلطته هذه لا تتعدى نطاق أسرته إذ ليس له أن يسيطر على القرية سيطرة سياسية أو ينفذ أنظمة حكومية . ولكنه إذا كان رئيس أكبر الأسر عددًا وأقواها جانبًا اعترف سكان القرية بزعامته اسميًا ، وعلى عاتق الزعيم تقع جميع مسئوليات الأسرة ، وهو الذى يحفظ لها مكانتها . وإذا أهين اعتبرت الإهانة عامة لكل الأفراد وعليهم جميعا غسلها .

الاحتفالات وتقيم الاسرات النبيلة الاحتفالات الفخمة فى مناسبات مختلفة كميلاد طفل أو زواج شاب أو بناء منزل جديد أو وفاة شخص ، وفى هذه الاحتفالات تقام الزينات العظيمة ويدعى إليها أفراد الاسر النبيلة المجاورة وكبار الشعب ، وتنادى أسماءهم عند دخولهم ويجلسون فى أماكن خاصة بهم ، ثم توزع عليهم الهدايا من جلود الحيوان والقوارب ، وتعتبر هذه الهدايا ردًا لخدمات البعض ، لكنها فى أغلب الأحوال تعتبر قروضاً جبرية ، إذ على هؤلاء الضيوف رد الهدايا فى احتفالاتهم الخاصة ، وتحاول كل أسرة أن تكون هداياها أعظم وأكثر حتى تنال حقوقا

وامتيازات جديدة . وتذكرنى هذه الحال بما يحدث فى قرى مصر
من تنافس بين الأسر الكبيرة على الظهور بمظهر الغنى فى الأفراح
والولائم والانتخابات . . . !

وكثيرا ما يأسر رجال القبيلة فى حروبهم مع القبائل المعادية
بعض الأسرى الذين يؤخذون إلى قرى الغزاة ويحفظون تحت
الحراسة مدة سنة فى أثناءها يمكن فداؤهم ، والا أصبحوا ملك
القبيلة تتصرف فيهم كما تشاء .

العبيد

ويعتبر العبيد مصدر ثروة للقبيلة ، وخير إعلان عن غنى
الأسر وعظمتها . وبالرغم من أنهم يأكلون ويلبسون كباقي أفراد
الأسرة إلا أنهم لا يملكون حقوقا أو امتيازات ، بل أن حياتهم
ملك لأصحابهم وفى كثير من الأحيان يقتل العبد عند موت سيده
كما أن بعض رؤساء الأسر ، عند بناء منزل جديد ، يذبحون
عبدا ويدفنونه تحت أحد الأعمدة الرئيسية فى البناء . وفى الكثير
من الأحيان تباع العبيد لقبائل مجاورة فى مقابل زيت سمك
الشمع أو جلود الحيوانات البحرية . وفى قبيلة « تلنجت »
فى جنوب الاسكا يبلغ عدد العبيد ثلث السكان
ويعتبر اقتناء العبيد شرطا أساسيا للمحافظة على مكانة الفرد
بين مواطنيه .

فلة الحروب
بين القبائل

وقد أدى تنافس الأسر والقبائل المختلفة على الظهور إلى

محاولة كل قبيلة استغلال موارد وطنها الوفيرة بقدر الامكان دون
التعدى على غيرها ، مما قلل من الحروب بينهم ، وقد ساعد على ذلك
أيضا أن سكان القرية ينشغلون في الصيف في صيد الاسماك إلى
درجة تصرف أفكارهم عن المشاحنات والمنازعات .

المنافسة
بين الاسر

غير أن طول المنافسة بين الاسر الكبيرة كان يؤدي أحيانا
الى العداء الظاهر الذى يجبر حروبا قد تظل السنين الطوال .
واذا قتل أحد الافراد ولو عرضا أخذ أقاربه بثأره ولهذا كانت
أغلب هذه الحروب بين الاسرات داخل القبيلة الواحدة وقلما
كانت بين قبيلتين لان بعد الشقة وصعوبة المواصلات وضرورة
التزود بالطعام طول مدة الحرب بعيدا عن الوطن تحول كثيرا
دون وقوع الحرب بين القبائل .

ولما كانت موارد رزقهم وفيرة لم يكن الغرض من هذه المناوشات
بين القرى والاسر المختلفة النهب والسلب ، بل المقصود منها
إذلال الاسرة أو القرية . ويقومون بغاراتهم هذه في قوارب مخصصة
لهذا الغرض قبيل الفجر ، وتكلف كل فئة من الغزاة الهجوم على
منزل خاص فيأخذون ماله ويأسرون سكانه ثم يحرقون القرية
حتى لا تقوم لها قائمة بعد ذلك .

*
*
*

هذا وصف مجمل لحياة قوم كانوا إلى عهد قريب يعيشون

بين أحضان البحر ، لا يعرفون سواه مصدرا لغذائهم وملبسهم
وموجها لنشاطهم توجيهها خاصا يميزهم عن غيرهم من الأقوام .
وبذلك مهد لنا طريق البحث في أثر البحار بوجه عام في حياة
الأمم المختلفة ومبلغ تحويره لتاريخها ومقدار تشكيله لأخلاق
الشعوب وعاداتها .

الفصل الثاني

عرض عام للبحار وآثارها ومشكلاتها

لقد أثارت حركة البحر الدائمة وأواجه الصاخبة المتلاطمة ومده وجزره دهشة سكان الشواطئ منذ الأزل ، وأوجدت فيهم الرغبة في استطلاع ما وراء البحر من عوالم مجهولة لديهم ، ولقد كانت الأنهار بطبيعة مجراها تسوق الناس إلى شواطئ البحار والمحيطات ، وعند ما يقفون حيارى وقد أخذهم العجب واستحوذت على نفوسهم الحيرة : هل يمتد ذلك المتسع المائي إلى اللانهاية الصامتة ، أم هناك عالم آخر على أطرافه النائية ؟ !

وقد أدى بهم هذا الشعور إلى المغامرة فبدأوا يجوبون الشواطئ القريبة والجزائر المجاورة ، فازداد علمهم بالبحر وأواجهه وتياراته ثم دفعهم الفضول وحب الاستطلاع إلى أبعد من ذلك فاندفعوا في مغامراتهم يصيدون السمك في بقاع نائية من البحر حتى ساق الحظ بعضهم إلى الوصول إلى الشواطئ الأخرى وكان ذلك في البحار الضيقة كالبحر الأبيض أيام الفينيقيين والأغريق

ثم ذهب الناس إلى ماهو أبعد من ذلك فخرجوا إلى المحيطات
العظيمة وأخذوا يجوبونها على غير هدى فوصل فاسكوداجاما إلى
الهند وكولمبس إلى أمريكا وبذلك فتح الطريق للكشف في
القرنين السادس عشر والسابع عشر فكنت ترى المغامرين
والمخاطرين يهرعون إلى تلك البقاع النائية المليئة بالأسرار، وقد
أدى الصراع على امتلاك الاراضى الجديدة إلى النزاع بين أمم
أوروبا البحرية الكبرى، وهى هولندا وفرنسا وإنجلترا، ذلك
النزاع التى خرجت منه إنجلترا سيدة البحار ومالكة زمام
المحيطات .

وإن من أراه اليوم من عظمة الدول البحرية كاليابان والولايات
المتحدة وإنجلترا وإيطاليا ماهو إلا أثر من آثار البحار فى حياة
الناس . وهى البواخر الضخمة والأسلاك البحرية تربط
شواطئ المحيطات وتنقل بينها نواحي النشاط المختلفة من سلع
تجارية وآراء سياسية ، وبذلك توطدت العلاقات بين الأمم التى
كننا إلى عهد قريب لا نعرف عن بعضها شيئاً . وهكذا نسجت
كل دولة بحرية من فينيقيا قديماً إلى إنجلترا الآن جزءاً من نسيج
هذا العالم العظيم .

ولقد نشأت فكرة الملاحة منذ القدم بين الأقوام المختلفة
عندما كان يعترض تجوالهم نهر أو بحيرة فصنعوا الخشب العائمة

لينتقلوا بواسطتها من ضفة نهر إلى أخرى غير أنهم سرعان
ما كانوا ينسون ما صنعوا إذا غابت عنهم تلك العوائق ولم تتركز
فيهم فكرة الملاحة إلا عندما بدت لهم الحاجة إلى صيد السمك
في الأماكن البعيدة من البحار والبحيرات .

وأول ابتكارات الإنسان للملاحة كانت أطواف Rafts من
الخشب أو البوص أو جذوع الأشجار مربوطة إلى بعضها ومغطاة
بجلود الحيوان ، وأمثال هذه الأطواف ترى الآن في نهر ستلج
Sutlej أحد فروع السند كما نرى شبيها لها في مصر تلك الأطواف
المكونة من الأواني الفخارية المربوطة وفوهاتها إلى أسفل
« البلايص » .

الأطواف

وقد خطا الناس خطوة ثانية فصنع ساكن العراق قاربه من
البوص المغطى بجلود الحيوان ، وكان ينقل فيه سلعه من أرمينيا
إلى بابل وهذه هي القوارب التي شاهدها هيرودوت في نهر
الفرات والتي لا تزال باقية إلى الآن ، وقد كان البريتون القدماء
Britons يمتلكون أمثال هذه القوارب ولا يزال القوم يستعملونها
في أنهار ويلز وشواطئ أيرلندة لصيد السمك .

القارب

ثم وصل الفكر الإنساني إلى صنع القوارب الخشبية بتجويف
جذوع الأشجار الضخمة إما بالآلات الحجرية أو بواسطة
حرقها بالنار ، ويدل انتشار هذه القوارب وبقاؤها حتى الآن

في أصقاع مختلفة من العالم على أنهم من الابتكارات التي وصل إليها العقل الإنساني مستقلاً غير مقلد في ذلك أحداً .

ولقد نشطت الملاحة بصورة واضحة بين سكان جزائر المحيط الهادى الجنوبي منذ القدم لأن البحر كان ولا يزال أكبر ظاهرة في حياتهم فنماظرهم الطبيعية بحرية ورحلاتهم للصيد بحرية وغاراتهم على بعضهم كلها بحرية ، وبذلك كانوا من أكثر الشعوب تجوالاً في البحر فدرسوه دراسة عميقة وأصبحوا خبراء بتقلباته وأرجائه ، ورسموا جزائرهم وما جاورها خرائط دقيقة دهش لها كوك عند زيارته لهذه الجزائر ، وقد رسم له أحد سكان تاهيتي خريطة بها أربع وسبعون جزيرة ، كما قص عليه أنباء ستين أخرى وهذا يبين لنا مبلغ اهتمام سكان الجزر بالبحر وأثره في حياتهم وعقليتهم .

وقد لعب البحر الأبيض المتوسط وجزره وأشباهاها دوراً البحر الأبيض هاما في الملاحة . فقد شجع هدوء ذلك البحر وقلة زوابعه وتياراته على اشتغال سكان شواطئه بالملاحة وساعدهم على الأخذ بأساليبها . غير أن هذا البحر المحصور كان مهبطاً للملاحة فقط ، ولكنه لم ينتج ملاحين أشداء مغامرين ، ولذا نرى اليوم الخطوط الملاحية الكبرى التي تجوب أطراف العالم في يد الأمم المطلة على المحيطات المتسعة كالانجليز والهولنديين والألمان ، كما

يحدثنا التاريخ أن أمم الكشف الجغرافي والشعوب التي هاجرت
إلى أمريكا هم النرويجيون والبرتغاليون والإنجليز والفرنسيون
والهولنديون وهم من أبناء المحيطات الشاسعة لا البحار الضيقة
ولا يدحض هذه الحقيقة ظهور كولبس وأمر يجوفسبوتشي
Amerigo Vespucci من بحارة إيطاليا الذين قادوا سفن
الإنجليز والأسبان، لأن طول احتكاك إيطاليا بالشرق واتساع
تجارتها معه قد ملأ أفكار ملاحها أمثال كولبس بالأفكار
والمعلومات الجغرافية التي كانوا يريدون تحقيقها، ومع ذلك فقد
كان أفق إيطاليا ضيقاً تحده شواطئ البحر الأبيض المتوسط
فلم يمتد بصرها إلى المحيطات البعيدة إلا أخيراً بعد أن اتسعت
دائرة تفكيرها. كذلك كان لاقتصار جنوه والبندقية على
أساليب الملاحة في البحار الضيقة أثره في اضمحلالهما. بعد كشف
الطريق البحري إلى الهند.

غير أن البحار الضيقة ضرورية في تثبيت قواعد الملاحة
ونموضها، وممهيد الطريق إلى خوض غمار المحيطات الشاسعة،
ونظرة واحدة إلى أفريقية ترينا أنه فيما عدا سكان شواطئ البحر
الأبيض والبحر الأحمر، لم تظهر بها أقوام بحرية كان لها أي أثر
في عالم الملاحة، لأن شواطئها قليلة التعاريج والبحار الداخلية.

مميزات البحار المحصورة

وهناك ظاهرة هامة خاصة بالبحار المحصورة وهي تميزها بطابع خاص من الحضارة وتشابه شواطئها في كثير من المظاهر كالجنس أو العادات أو الحضارة أو اللغة، فشواطىء البحر الأبيض البحر الأبيض تقطنها أقوام تنتمى جميعها إلى جنس البحر الأبيض الذى يتميز بطول الجمجمة وسمرة البشرة رغم اختلافها فى اللغة والقومية، ولذا فالبحر الأبيض وحدة تاريخية خاصة، لان سكان شواطئه كانوا على اتصال دائم فقد وصل الفينيقيون إلى شواطىء أسبانيا غرباً كما أن سفن برشلونه وصلت الى شواطىء الشام وفلسطين شرقاً، كذلك كانت سفن الاغريق تجوب كل شواطىء هذا البحر وجزره حتى الاسكندرية .

واذا انتقلنا إلى بحر الشمال نجد أنه خضع لمثل الظروف التى بحر الشمال كانت سائدة فى البحر الأبيض إذ كان قديماً مقسماً بين الجنس الكلتى Celtic فى انجلترا غرباً والجرمانى شرقاً وما وافى القرن الحادى عشر حتى كان كله تيوتونيا Teutonic وما انقضت القرون الوسطى حتى كانت الحضارة التيوتونية سائدة فى أرجائه من برجن Bergin إلى بروجز Bruges . كذلك امتدت الأجناس والثقافة التيوتونية إلى بحر البلطيق حتى شواطىء فنلندا وروسيا. وقد كانت سفن الاتحاد الهنيسى فى هذا البحر تنقل

التجارة بين ثغوره حاملة معها أساليب هذه الحضارة وخصائصها .

البحر الأحمر كذلك امتاز البحر الأحمر بنوع خاص من المدنية العربية التي نقلها العرب بين الاجناس السامية التي تسكن على شاطئه الافريقى وذلك عن طريق تجارتهم الواسعة بين ثغوره الهامة أمثال زيلع ومصوع وسواكن .

بحر بنج ولو تذكرنا معرض لنا عند الكلام على الاسكيمو تبينا أن بحر بنج يتميز أيضا بنوع خاص من المدنية المشتركة بين الاسكيمو في شمال كندا وقبائل اليوقاغير والشوكشى في شمال شرق سيبيريا وهم جميعا يتشابهون في الجنس والعادات ولا يعلم بالضبط متى وكيف كانت هجرة أحدهما إلى وطن الآخر .

المحيط الهندى ولقد لعب المحيط الهندي أيضا دورا هاما في التاريخ البحرى إذ كان لضيقه من الشمال أثر في تشجيع بعض الشعوب على احتراف الملاحة فقامت سفن اليمن وعمان بنفس الدور الذي قامت به سفن الفينيقيين في البحر الأبيض وكما حملت هذه المدنية المصرية إلى شواطئ البحر الأبيض كذلك نقلت سفن عرب اليمن وعمان الحضارة الاسيوية الى شاطئ أفريقيا الشرقى . وبذلك اقترنت ظروف أسيا بظروف أفريقيا وأصبح للمحيط الهندي مدنية خاصة تمتد من جاوه إلى بلاد الحبشة .

ويلاحظ أن كل عصر من عصور التاريخ كان له مسرحه
البحري الخاص الذي انتقل منه إلى آخر يلائم ظروفه الجديدة
في العصر الثاني ، فكان للاغريق بحر أيجيه وكان لاطاليا
البحر الأبيض ، وكان لغرب أوروبا المحيط الأطلسي أما الآن
فلنا المحيط العالمي بأجمعه .

وقد صحب هذا الانتقال نضال عنيف بين الأمم على سيادة
البحار ، ففي البدء كانت فينيقيا تملك شرق البحر الأبيض
دون منافس ، فلما ظهر الاغريق على مسرح الوجود وكان لهم
من طبيعة بلادهم الجبلية حافزاً شديداً على التوغل في البحر ،
زاحموا الفينيقيين وطردهم من الميدان . ثم كان الصراع بين
قرطاجنه وروما في غرب البحر الأبيض ، ذلك الذي أدى إلى تغلب
روما في الحروب البونية وبدا أصبح البحر الأبيض رومانيا وتمكن
أسطول بومبي Pompey من طرد قرصان البحر منه ونشر الأمن فيه .

ولقد كانت البندقية سيدة الادرياتيک The Queen of the Adriatic البندقية
في القرن الثالث عشر وكان من حقها تفتيش كل السفن التي تشق
عبابه وإلزامها أن تفرغ ثلثي حمولتها في البندقية .

وفي الشمال تنافست السويد والدانيمرك على سيادة البحر البلطيق السويد والدانيمرك
ولكن مدن الاتحاد الهنيسي The Hanse Towns في ألمانيا

ملكتم زمام البحر وكان لها حق فرض الضرائب على السفن
التي تدخله .

انجلترا كذلك كانت انجلترا سيدة بحر الشمال والقنال الانجليزي

وخليج بسكاي من سنة ١٢٩٩ حتى سنة ١٨٠٥ .

وفي بدء القرن السادس عشر كان المحيط الهندي بحراً برتغاليا
كما كان لاسبانيا السيادة على البحر الكاريبي في المحيط الاطلسي
غير أن سعة هذه المحيطات لم تمكن إحدى الدولتين من السيطرة
عليه تماماً ، وبدخول الدول الأخرى في ميدان الملاحة والاستعمار
زالت نظرية الملكية القديمة للبحار وبدأت تحل بدلها نظرية حرية
البحار Mare liberum التي اعترفت بها انجلترا سنة ١٨٠٥ وبذلك
اصبح لكل دولة الآن مياهها الخاصة الى مسافة ميل بحري واحد
من شاطئها ، وفيما عدا ذلك فالبحار والمحيطات حرة للجميع على السواء .

أثر البحار في أفعال البشر

والآن وقد بدت لنا صورة جلية لأبناء البحار في العصور البائدة
المختلفة وعرفنا الكثير عن حياتهم وأعمالهم نستطيع أن نبين أثر
البحر في أخلاقهم وصفاتهم .

روح المغامرة فأول ما يمتاز به سكان الشواطئ البحرية هي روح المغامرة
والاستهتار بالاهوال والمصاعب وحب المخاطرة . تلك الروح التي
ينفثها فيهم البحر الغامض بأمواجه الصاخبة وبقاعه المجهولة .

وقد كان لتأصل هذه الروح في نفوس سكان الشواطىء أثر عظيم
في تغيير مجرى التاريخ ، بما كان لغزواتهم البحرية من آثار خالدة
لا تقل عن غزوات رعاة آسيا البرية . ونظرة واحدة الى تاريخ إنجلترا
في القرن التاسع والعاشر من الميلاد ترينا مبلغ أهمية هذه الغزوات ،
فقد تعرضت إنجلترا في هذا العصر لهجمات الاسكنديناويين الذين
كانوا يسكنون شواطىء النرويج . أولئك الابطال الذين كانوا
يعبرون بحر الشمال بأنوائه وأمواجه المتلاطمة إلى شواطىء إنجلترا
في سفن طويلة مكشوفة ، يسيرينها بمجاديفهم حتى اذا بلغوا الارض
هاجموا المنازل والاديرة ، وسلبوا ما بها ثم نكصوا على أعقابهم
واحتواهم البحر الى بلادهم النائية حيث اثاروا بقصص مخاطراتهم
روح الغزو والفتوح في قلوب الشعب ، نسائه ورجاله فما انقضى القرن
التاسع حتى كان أهل الشمال The Norsemen قد وصلوا إلى
البحر الابيض جنوباً وامريكا غرباً والروسيا شرقاً .

يقول تريفليان Trevelyan المؤرخ الانجليزي

«لولا الامتزاج بيننا وبين أهل اسكنديناو خلال النكبات التي

حلت بنا في القرن التاسع ، لما رأينا البحرية البريطانية والنشاط
التجاري على ما شوهد بعد ذلك من الضخامة والعظمة » .

ومن هذا القول نعلم قيمة ما يمتاز به أبناء البحر من صلابه
العود والقدرة على مواجهة الأخطار والتغلب عليها .

حب الهجرة ومن أهم صفات سكان الشواطئ أيضاً حبهم للهجرات والاسفار

الطويلة ، وذلك لتعودهم ركوب البحر الذى يثير فيهم حب الاستطلاع
والرغبة فى معرفة المجهول ، وقد أدت بهم تلك النزعة الى حذق التجارة
والتفنن فى كسب مودة غيرهم من الاقوام ، وفى بلادنا مثل حى لهذا
من اليونان الذين يتركون أوطانهم ويستقرون فى قرى مصر النائية
حيث يشتغلون بالتجارة ، وسرعان ما يكسبون مودة الناس وثقتهم
ويصبحون فى مدة وجيزة من ثروة القوم . واذا علمنا أن أهل النرويج
يشتغلون بصيد الحوت فى بحار نيوزيلند جنوباً أمكننا تقدير ما يتمتع
به هذا الشعب من جرأة عظيمة وحب متأصل للتجوال فى انحاء الأرض .

القدرة
على التجارة
فلا عجب إذا إن رأينا الامبراطوريات العظيمة تكاد تكون
وقفاً على الشعوب البحرية ، فها هى انجلترا لا تغيب عن أملاكها
الشمس ، وها هى هولندا الصغيرة كانت من سادة البحار فى القرن
السادس عشر ، وتمتلك الآن مستعمرات تزيد أضعافاً عنها فى المساحة
والسكان كجزيرة جاوه التى يبلغ عدد سكانها وحدها ٣٧ مليوناً
بينما لا يزيد سكان هولندا نفسها عن ٧ مليوناً ، وقد أصبح هولندا
على صغرها أسطول تجارى عظيم يعتبر السابع بين اساطيل الدول
وتبلغ حمولته ٢ مليوناً من الأطنان . وليس لنا أعظم من اليابان
مثلاً على همة الشعوب البحرية إذ قد أصبحت هذه الدولة فى سنوات
قليل ثالثة الامم البحرية العظيمة ومصدر احترامها ورعها .

مركز المرأة بين الشعوب البحرية

تقوم المرأة بين سكان الشواطئ بقسط كبير من العمل ، إذ لا يتعدى عمل الرجل صيد الأسماك ، فإذا عاد من رحلته بدأ عمل المرأة ، فعليها أخذ السمك إلى الأسواق لبيعه ، وهي التي تملح الباقي منه وتحفظه ثم تقوم بتصليح الشباك أو تجهيزها للصيد . ولما كان من المحتمل أن يتغيب الرجل في الصيد أياماً بل أسابيع كان على المرأة أن تدير شئون منزلها . وتشرف عليه إشرافاً دقيقاً وتتولى الاتفاق بحكمة وتدبر ليكيفها ما معها من نقود حتى يعود زوجها بنصيبه من السمك . ولذا كان عملها في الواقع أكثر من عمل الرجل وأكثر التصاقاً بالمنزل وقد نتج عن ذلك أن أصبح لها مركز ممتاز في البيئة البحرية يتناسب مع ما تحمل من مسؤولية ، ولذا نجد في النرويج وفنلندا المساواة بين الجنسين Equality of the sexes بحيث أصبح التعليم مختلطاً وأصبح للنساء حق عضوية البرلمان وشغل مختلف الوظائف الحكومية حتى أن سعاة البريد في فنلندا من الفتيات . ولعل في احترام المرأة في هذه البلاد وتقديرها للمسئولية سر نضوج أفكار الأبناء وحبهم للمساواة والحرية واعتمادهم على النفس - تلك الفضائل التي جعلت الشعوب البحرية في مقدمة الدول .

البابُ الخامسُ

قيام الصناعة الحديثة

Rise of Modern Industry

الفصل الأول

قبل الثورة الصناعية

مرت أمام باصرتنا حتى الآن صور شتى للإنسان في بيئات مختلفة وعصور متعاقبة ، ومنها نعلم أن أكبر مستلزمات ذلك الإنسان كانت الحصول على ما يرد عنه غائلة الجوع ، وما يقية تقلبات الطبيعة ، وقد كانت يده أداة العمل ، وعلى قوته الجماعية كانت تتوقف حياته ، كما كان الحيوان والأرض مصدر غذائه وملبسه . وكانت الجماعات الانسانية طوال العصور تعتمد في معيشتها على ما ينتجه أفرادها وأسرها دون الحاجة إلى غيرها Self- Sufficing Communities ، وبذلك كانت كل جماعة وحدة مستقلة عن العالم الخارجى ، ذلك العالم الذى لا تفتقر إليه ولا تعرف عنه القليل أو الكثير ، إلا إذا دفع الفضول أو الطمع أو الفاقة إحدى الجماعات الأخرى إلى التعدي عليها للحصول على غذاء أو ملابس .

من هذا نرى أن قوة الفرد أو الجماعة كانت العامل المسيطر

الطواحين
المائية
والهوائية

على الانتاج كثرة أو قلة ، وبذلك كانت الحياة في أبسط أشكالها ، ولم يكن للانسان من مطمع أكثر من الحصول على طعامه وملبسه .

ثم جاء عصر وصل فيه الفكر الانساني إلى استخدام الطواحين المائية والهوائية لطحن غلاته اللازمة لطعامه ، تلك الطواحين التي نشاهدها الآن مبعثرة هنا وهناك ، فلا تجول في خاطرنإ إلا ذكريات الماضي البعيد ، ولا تفكر فيها كمصدر قوة محركة ظلت مئات السنين أقصى ما وصل إليه الفكر الانساني .

والحق أن الطاحونة على صغرها وبساطتها ظلت دهورا طويلة أكبر أداة للانتاج تفوق الجهد الجثماني ، ولقد أدى الوصول إليها إلى ثورة عنيفة في حياة الأفراد والجماعات الذين كانوا يطحنون حبوبهم بأيديهم في ساعات بل في أيام. ولا أدل على أهمية تلك الطواحين المائية أو الهوائية من نشوء مدن كثيرة كانت تعزى شهرتها إلى قربها من إحدى تلك الطواحين .

غير أن الانسان قد ظل بعد ذلك طويلا يعتمد في عمل ملبسه على يديه ومجهوده الشخصي ، فكان يجهز بنفسه جلود الغنم والماعز ويغزل وبرها ، ويزرع الكتان ويحيك رداءه ، ولذا أعتبر اختراع الأنوال تقدما كبيرا في الحياة الاقتصادية مما أدى إلى

تكوين نقابات النسيج في القرون الوسطى Weaving Guilds في التجارة

شمال إيطاليا كما اشتهرت أنجلترا بتربية الأغنام وإنتاج أجود أنواع الصوف .

ولم يكن للتجارة وجود بمعناها المعروف للعالم الآن ، لأن التجارة إنما تنشأ إذ زاد إنتاج الغلات عن الحاجة في بلد ما ، وكان من السهل نقلها إلى بلاد أخرى تفتقر إليها دون صرف كثير من النفقات ، غير أن دول العالم قبل مائة عام قلما كانت تنتج أكثر من حاجتها ، لضعف وسائل الانتاج ، كما كانت نفقات النقل كبيرة إلى درجة لا تشجع على التصدير حتى إذا كان الانتاج رخيصا .

ولذا لم يكن للتجارة شأن كبير . وحتى بعد كشف البرتغاليين لطريق الهند البحري ، ما كنت ترى إلا سفنا ضئيلة تجري تحت رحمة الريح إلى بلاد نائية ربما لا تعود منها إلا بعد شهور يقاسى الملاحون والتجار خلالها أهوال البحر الجسام ، ولذا كانت السلع المنقولة وأهمها التوابل والبهارات غالية الثمن ، ولا يقتنيها إلا ثروة القوم . كذلك كانت الأنهار هي وسائل الاتصال الداخلى بين أجزاء البلد الواحد ، لأنه لم يكن في مقدور الناس إنشاء الطرق الصالحة للنقل . وكان الناس يعيشون في قرى صغيرة متناثرة لا يزيد عدد سكان الواحدة منها على بضع مئات ومثلها ليفر پول التى ظلت قرونا لا تحوى أكثر من سبعة أفراد

وقلما كانت هناك ثغور تجارية أو موانئ بحرية، ولم يكن لكل وحدة سياسية إلامدينة كبيرة تعتبر مركز الحكم والمكان الذي يجتمع فيه المسئولون من الناس لبحث أهم المسائل الاجتماعية أو وسائل الدفاع عن الاقليم . وقد ظل هذا النظام Manorial System سائداً في أوروبا باقرون طويلة ، وظل الناس يولدون ويموتون في عالم يعتمد في كيانه على الزراعة والرعى والقوة الجماعية فقط حتى جاء أكبر حادث في تاريخ البشرية وهو الانقلاب الصناعي .

الفصل الثاني

الانقلاب الصناعي في إنجلترا

في عصر يوم من أيام الربيع في سنة ١٧٦٥ بينما كان جيمس وات James Watt البالغ من العمر تسعة وعشرين عاماً يسير بين الحقول يفكر في قوة البخار ، تلك المسألة التي شغلت مخيلته الأيام والليالي ، إذا به يتوصل الى حل تلك المعضلة ، ويصبح في مقدوره أن يستخدم البخار كقوة محرّكة في الصناعة .

وما انقضت سنة ١٨٠٠ حتى كانت الآلة تستخدم في المناجم ومصانع الورق والنسيج . وكانت أعمدة الدخان المتصاعدة من آلاف المداخن في كل الأنحاء تعلن للملأ انتصار الصناعة وعظمة الفكر الانساني و بدء عصر جديد في تاريخ البشرية . وإذا كان لفرد أن يفخر بأنه مؤسس المدنية الحديثة فإنه جيمس وات . وقد كان من الطبيعي أن تكون إنجلترا هي مهد الصناعة ومسرح هذا التطور الفجائي من حالة الزراعة والرعى في القرى و Manorial System الى حالة التعدين والصناعة في المدن ، لأنها غنية بالفحم في أغلب أنحائها ، كما أن مناجمها قريبة من شاطئ البحر ، كما في نيوكاسل بحيث يسهل نقله الى سائر جهاتها عن

العوامل التي
ساعدت
الانقلاب
الصناعي في
إنجلترا

طريق الماء ، كما أن الكثير من مناجم الحديد وجدت قريبة
من مناجم الفحم ، لذا كان التطور الصناعى بها أسبق منه فى
غيرها من دول أوروبا . وقد ساعد على ذلك أيضاً عدم انشغالها
طويلاً فى حروب نابليون التى شعلت أوروبا الى سنة ١٨١٥ فلم
تتح لدولها الفرصة للاشتغال بالصناعة ، بل كانت تعتمد كثيراً
على إنجلترا فى استيراد ملابس الجنود والأسلحة .

وبظهور الصناعة فى إنجلترا والخطوات السريعة التى سارت
بها ، تغيرت الحياة الاجتماعية بها تغير محسوساً ، وكانت طائفة
العمال أكبر طوائف الهيئة الاجتماعية تأثراً بهذا التغير والتطور .

هجرة القرية
وقيام المدن

وقد استلزم الاشتغال بالصناعة أن تقوم المصانع والمعامل
حول حقول الفحم ، لانه المولد للقوى المحركة . وبذلك قامت المدن
الصناعية فى أنحاء إنجلترا ، واجتذبت إليها من كل الأنحاء
جمهور العمال الذين بهرتهم الأجور المرتفعة التى كان يدفعها أصحاب
المعامل والمصانع ، وقد كان من نتيجة ذلك أن خلت القرى الهادئة
الجميلة من أغلب سكانها الذين نزحوا فى جماعات الى المدن
فتفككت روابط الاسرة وساد على القرى شبح الوحشة والجفاء
وردد الشعراء صدى تلك التعاسة فى أشعارهم ، فهذا « شلى »
بعواطفه الانسانية ، وذاك « وردزورث » التقى الورع ، و « بيرون »
المتهب العاطفة ، « وسكوت » صاحب الخيال الرائع ، قد قاموا

ينددون بالصناعة ويحبذون الرجوع إلى الخلوات والفضاء المتسع
حيث يتمثل جمال الطبيعة ، حيث الهدوء والسكون .

ترك الناس حقوقهم ومنازلهم الريفية البسيطة ونزحوا إلى المدن
ففقدوا بذلك شخصيتهم وحريتهم ، وأصبحوا وحدات في مصانع
كبيرة ، لا يفرق أصحابها كثيراً بينهم وبين الآلات التي يلاحظونها
وأصدق تصوير لحالة العامل الأجير Proletariat التي آل إليها
بعد اشتغاله بالصناعة مقاله «ورنر سمبارت» Warner Sombart

حالة الأجير

«الأجير هو ذلك الشخص الذي انقطعت صلته بالطبيعة ، فهو
لا يفقه لحركات السحب في السماء معنى ، ولا يهزه صوت العواصف
وليس له وطن أو مستقر . أمستطيع هو أن يشعر بأمان المنزل
وراحته في أبنية المدينة الشاحخة المتلاصقة المزدحمة ؟ . إنه دائم
التنقل من منزل إلى آخر ، ومن مدينة إلى أخرى كيفما تناديه
الرأسمالية العاشمة . أصبح شاردًا هائمًا على وجه الأرض ، وأصبح
نداء الطبيعة غريبًا على سمعه وجمالها غريبًا على بصره الذي
أعمته المادية القاتلة ، ولم يعد لأغلب أفراد الشعب ما يفخرون
بامتلاكه . كان لا فقير الناس فيما مضى قطعة من الأرض تقوم في
وسطها عشة ويرعى في حقولها الخضراء بعض الحيوان وهذا المتاع
على ضآلته كان يوحى إليه معنى الاستقرار ، أما اليوم فكل ما يمتلك
لا يملأ عربة نقل صغيرة ، وهذا ما تبقى له من حطام الدنيا .

لقد سحقت الرأسمالية بأقدامها الحديدية كل شعور نبيل
للاجتماع ، وبذلك تقلص ظل الحياة فى القرية ، وأصبح العامل
الاجير مخلوقا بأئسا »

والحق أن العامل فى ذلك الجو الصناعى المكفهر أصبح
لا ينظر إليه كمخلوق له حريته وحقوقه الخاصة ، بل كان يعتبر
قوة محركة كالفحم أو آلة من آلات المصنع ، وكان التشريع
القانونى يحد من حريته الشخصية بدلا من أن يكفلها له ، وفى سنة
١٧١٩ صدر قانون يحرم عليه الاشتغال فى أقطار أخرى ، وفى
نهاية القرن الثامن عشر صدر قانون يمنع العمال من التضامن
والمطالبة برفع أجورهم ، ويخول للضابط القضاء أن يحكم بالسجن
ثلاثة أشهر على كل من حاول إثارة ضجة أو حرض على الاضراب
أو طالب بتحسين أحوال العمال . وهكذا أصبح العامل
الانجليزى فى ذلك الوقت محروما من التعليم والحقوق السياسية
على السواء .

ومن النشرة التالية التى صدرت أثناء إضراب من
الاضرابات يتبين سوء حالة العمال .

« إنهم يشتغلون أربع عشر ساعة فى اليوم الواحد ، بما فى
ذلك ساعة واحدة للغذاء ، وكان رتاج الباب محكما طوال هذه
الساعات ، ما خلا نصف ساعة عند الساعة الخامسة للشاى ولم

يكن يرخص للعمال أن يطلبوا الماء أثناء العمل ، وأنهم لسعداء
أن يرشفوا بعض قطرات من ماء المطر ، لولا أنه أيضا محظور
عليهم بأمر سيدهم .

وكان العامل يدفع شلنا كغرامة إذا وجد قدرا أو سمع له
صغير أو فتح النافذة . وهكذا تضافرت كل العوامل على تحويل
الانسان إلى مخلوق آلى ليس له شعور ، فالقوانين الحكومية
القاسية ، والمدن المزدهمة المظلمة ، وانعدام حرية الاختيار ،
والجو المكهرب ، كل ذلك نزل بالانسان إلى مستوى الحيوان .
قال أحد النقاد في هذا الصدد : —

« تدور الآلة والعمال دائبون على العمل ، فالرجال والنساء
والأطفال يرزحون جميعا تحت نير الحديد والبخار . والانسان
والآلة صنوان لا يفترقان ، أو هما آلتان لا تختلفان ، يؤلف
بينهما المصنع في غير شفقة أو رحمة ، رغم أن الأولى — وهى
الانسان من لحم ودم ، سريعة الاستجابة لشتى المؤثرات ، معرضة
لختلف الأحاسيس ؛ والثانية من حديد وصلب ، لا تتأثر ولا
يدركها التعب . »

فلا عجب والحالة هذه إذا سئم العمال حياتهم وخرجوا بعد
أوقات العمل الممض إلى الحانات يحتسون الخمر لينسوا آلام
الحياة . ولا عجب أن يصبح العامل شرسا فظ الطباع قد

انحطت فيه كل الغرائز الانسانية وأصبح متوحشا Brutalised
لا يرد تحية ولا يبتسم حتى لا يبنائه!

وقد زاد هذه الحالة سوءا أن العمال أصبحوا لا يجدون لذة
في عملهم ، لأن من مستلزمات الصناعة الحديثة تقسيم العمل
Division of Labour ، وبذلك أصبح العامل الواحد يكلف
بأداء نوع خاص من العمل طول حياته تقريبا ، وبذلك اقتصر
عقله وممرانه على ناحية واحدة من النشاط وركدت فيه القوى
الأخرى واضطرته هذه الحالة إلى الخضوع لأصحاب المال خوفا
من تعطله إذا طرد لأنه لا يصلح لعمل آخر .

وقد كان من اللازم لتخفيف وطأة هذا الجفاف في حياة
العامل اليومية أن تقوم الهيئات المسؤولة بنشر الثقافة العامة ،
ووسائل التسلية بين العمال في أوقات فراغهم ، كالأكثر من
المحاضرات العامة ، ودور الملاهي والمتاحف والحدايق العامة
والألعاب الرياضية ، غير أن العقول المفكرة في ذلك الوقت
كانت تعارض كل أنظمة يقصد بها تثقيف العمال ، إذ كان
المعتقد أن زيادة الإنتاج تتطلب إطالة ساعات العمل وتجريد
الحياة من وسائل التسلية ، وأخذ من حرية التفكير في الماضي
أو المستقبل .

قال أحد النقاد في وصف حياة العمال : —

«اعتبرت رياضتهم جريمة وانقلبت أيام عطلتهم إلى أيام صوم»
ولم يكن للتعليم نصيب من عناية الحكومة حتى أن إحدى
مقاطعات لانكاشير وسكانها يزيدون عن مائة ألف لم يكن بها
حتى سنة ١٨٣٩ مدرسة واحدة لتعليم الفقراء ، كما أن نسبة
الذكور المتعلمين في ويلز الجنوبية سنة ١٨٥٢ لم تزيد عن اثنين
في المائة ، وحتى عندما بدأ المسئولون يولون التعليم نصيبا من
عنايتهم كان همهم الأول من وراء ذلك الوصول إلى زيادة إنتاج
الأطفال لا إلى توسيع مداركهم أو توفير أسباب السعادة لهم .
وهكذا كانت المنفعة هي محور تفكير إنجلترا في ذلك
العصر ، وبذلك أصبح دخان المدن الكثيف ومناجمها المظلمة
والفوضى الغالبة عليها والجهل الخيم على سكانها واليأس القاتل
المفعمة به قلوب الصغار والكبار من أهلها ، كل ذلك كان ينظر
إليه كمظهر من مظاهر الكسب ووسيلة ناجعة للإنتاج !
ومدن هذه صورتها لم تكن مأوى يجد فيه الإنسان الجمال أو
السعادة أو الثقافة أو الدين ، أو أى مؤثر من مؤثرات المدنية
الحقة ، بل بقاعا عارية جرداء لا حسن فيها ولا ابتسام ، أمكنة
يعمل فيها الرجال والنساء والأطفال طيلة يومهم ثم يأكلون
وينامون . كان هذا مصير الطبقة العاملة وأسلوب حياتهم الذى

لا يتغير . وهكذا كانت المصانع والمعامل أكثر شبهها بالأهرام المصرية دليلاً على استعباد الإنسان لأخيه قبل أن تكون مظهراً من مظاهر قوته ونبوغه .

استخدام
الأطفال في
الصناعة

على أن أسوأ نتائج الاشتغال بالصناعة كان استخدام الأطفال في المعامل مدة لا تقل عن أربع عشرة ساعة في اليوم . ولقد اندفع أصحاب المال وراء جشعهم وجهنم للمادة ، فتمادوا في هذا النوع من (الاسترقاق) حتى أصبح استخدام الأطفال في الصناعة من القواعد المرعية التي يجبها ويدافع عنها رجال الحكومة ، يدلنا على ذلك ما قاله Pit الوزير الانجليزي في هذا الصدد ، عند ما كان يعارض في سن قانون « الحد الأدنى للأجور » في مجلس العموم في ١٢ فبراير سنة ١٧٩٦ قال : — « لقد علمتنا التجارب العملية مبلغ ما يمكن الحصول عليه من فائدة من استخدام الأطفال في الصناعة ، ومزايا التبكير في تكليفهم بصنع ما يمكنهم اتقانه بالطبيعة »

وتمشياً وراء هذه القواعد والانظمة كانت الملاجئ الدينية للفقراء Parishes تشرط عند قبولها مساعدة أحد المحتاجين أن يقدم أطفاله إلى الملاجئ لارسالهم إلى أصحاب المصانع في لانكشير ويوركشير حيث يقبرون هناك إلى الأبد ، ويحرمون عطف الآباء ونعمة الأسرة . ومن سخرية القدر أن يدافع المسئولون

عن هذا النظام دفاعاً غريباً في منطقته ، يدل على انعدام روح العطف بين الناس في ذلك الوقت ، ويرينا مبلغ تقدير . الهيئة الاجتماعية للفقراء من الناس . قال مستر ورتلي في مجلس العموم سنة ١٨١١ « إن من أجمل الفضائل أن نبذر بذور المحبة بين الأطفال وآبائهم في الاسر الراقية ، كما أنه من صالح الأطفال في الاسر الفقيرة الوضعية أن نحول بينهم وبين آباءهم التعساء »

وقال أيضاً في وجوب استخدام الأطفال في الصناعة : — « إنه من الخطر على الجمهور أن تمنع الأطفال من الاشتغال في الصناعة إذ بذلك ترتفع الأجور ويتبع ذلك ارتفاع أثمان البضائع » كان هؤلاء الأطفال التعساء يسمون « أطفال السخرة »

Free-labour Children يدخلون المصنع في الساعة السادسة صباحاً ويتركونه في الساعة الثامنة مساء ، وليس لهم الا نصف ساعة للأفطار وساعة لتناول الغذاء ، وكثيراً ما كانوا يكلفون بتنظيف الآلات أثناء هذه الفترات . وقد قدر أن الطفل يسير عشرين ميلاً في اثنتي عشرة ساعة حول آلة الغزل ليجمع بقايا القطن المنشور فوق الارض .

وقد قال أحد كبار تجار الرقيق في ذلك العصر عند مشاهد هذه القسوة في معاملة الأطفال : —

« كثيراً ما استولى على شعور الاستياء والنفور عند ما

أذكر أنى تاجر رقيق . ولكننا فى جزائر الهند الغربية . موطن
الرقيق . لم يدرب بخلدنا يوما أن تجمد الشفقة فى الانسان وتنتهى
به القسوة فيستخدم طفلا فى التاسعة من عمره لمدة لا تقل عن
اثنتى عشرة ساعة فى اليوم »

وقد قام كثير من المصلحين يهاجمون هذا النظام فى النصف
الاول من القرن التاسع عشر حتى سن قانون فى سنة ١٨٤٧
حدد ساعات العمل لمن بين التاسعة والثامنة عشر بعشرة
ساعات فى اليوم .

على أن نصيب النساء من شرور الصناعة لم يكن بأقل من
نصيب الرجال أو الأطفال ، فقد تركوا منازلهن الصغيرة
واندمجوا فى السلك الصناعى فأحنين رؤوسهن الرقيقة لنير الاستعباد
وبدخولهن فى هذا المضمار كعنصر جديد قامت المنافسة بينهن
وبين الرجال ، وأصابهن ما أصاب الرجال من تدهور فى الصحة
وانغمسن فى الرذائل ، فارتدن الحانات واحتسبن الخمر ورفعن
عن وجوههن قناع الحياء .

وبذلك تقوضت الأسرة ووهن النظام الاجتماعى وأصبح
الافراد بعيدين عن بعضهم لا يحسون بالعطف ولا يقدرون
الارتباط العائلى ، واجتاحتهم المادية وأصبحوا آلات جامدة
للاتنتاج .

اشتغال
النساء
بالصناعة

الرأسمالية

نترك الآن الطبقة العاملة إلى طبقة أخرى جديدة أظهرتها الصناعة — تلك هي طبقة أصحاب رؤوس الأموال Capitalists فقد كان من الطبيعي أن يستلزم استخراج المعادن من المناجم وبناء المصانع والمعامل رؤوس أموال ضخمة ، قام باستغلالها أفراد مغامرون يتميزون بتحكمهم عقولهم في أعمالهم ، ونبتد العاطفة وراء ظهورهم ، أولئك هم الممولون الذين ميزتهم الصناعة كطبقة طاغية غاشمة ، فتحكموا في كل مظهر من مظاهر الحياة وأصبح بيدهم مقاليد الأمور في ذلك الوقت ، وكادوا يتمتعون بحق إلهي كحق ملوك إنجلترا الألهي في عصر أسرة الاستيورات
. Divine Right of Kings

ولم يكن لهؤلاء مطمع في الحياة أكثر من الربح والنفع المادى ولذا لم يتورعوا عن سلوك كل السبل التي توصلهم إلى هذه الغاية ، وقد عرفنا مبلغ استهتارهم بالعواطف الانسانية ونكرانهم لحقوق عامة الشعب الممثل في معاملتهم المروعة للعمال ، من أطفال ونساء ورجال . تلك المعاملة القاسية التي أثارت في نفوس العمال الحقد الدفين والبغض المتأصل الذي أدى بمرور الوقت إلى ظهور أفكار الاشتراكية Socialism بين العمال .
وسنجد هنا شيئاً عن مبادئ الاشتراكية : —

(أولا) تعتبر الاشتراكية النظام الاجتماعي الخالي نظاما فاسدا لأنه يخول الممولين وهم الأقلية من الناس حق استغلال العمال — وهم الأكثرية — لنفعهم الخاص وبذلك يرى الاشتراكيون إيجاد نظام جديد لا تكون الملكية فيه وسيلة للدخل باستغلال العمال . وهم في ذلك فئات مختلفة فمنهم « الشيوعية » Communist School التي ترى عدم الاعتراف بأى أملاك خاصة للأفراد « والاشتراكية الجمعية » Collectivism التي ترى مصادرة الأملاك التي تتطلب استخدام العمال فقط كالمصانع ثم « اشتراكية الأرض » Agrarian Socialism التي ترمى إلى مصادرة الأراضي فقط باعتبارها المصدر الطبيعي للثروة وأخيرا « الاشتراكية التعاونية » Co-operative School التي ترى منع الربح دون التعرض للأملاك الخاصة .

(ثانيا) تتفق كل هذه المذاهب الاشتراكية في أن الثورات من أهم وسائل قلب الأنظمة الاجتماعية القديمة وإحلال الأنظمة الجديدة مكانها ويقولون في ذلك

« إن صغار الطيور لا تخرج من البيض إلا بعد تحطيمه كما إن كل تطور جديد هو في ذاته ثورة على القديم في وجه من الوجوه —

وإذا ما تأهبت الجماعة الحديثة للخروج عن أوضاع القرون ،
وخلع نير التقاليد فليس إلا العنف والهدم وسيلة فذة لهذا
الانقلاب .

(ثالثاً) ترمى الاشتراكية إلى الاستغلال كل الأملاك
الخاصة لمصلحة الشعب دون الأخذ بنظام الأرباح على أن تكون
اللجان المكلفة بتنفيذ هذا النظام اقتصادية وليست سياسية
وبعبارة أدق تكون أشبه بمجالس تنفيذية ، لجمعية تعاونية هائلة
تنتظم مرافق البلاد بأكملها . ويسمى هذا النظام « تعميم
الاستغلال » "Socialization" أو "Nationalization"

(رابعاً) ترى الاشتراكية أن مصالح أصحاب الثروات
تعارض مع مصالح العمال وعلى ذلك يجب القضاء على الطائفة
الأولى ، وقد نضج هذا النوع من الاشتراكية في مذهب جديد
يسمى Syndicalism ومعناها « الاشتراكية الطائفية » التي
لا تقبل في عضوية جمعياتها إلا العمال ، وأهم مبادئها الحصول على
مطالب العمال بواسطة الاضراب وإلغاء نظام الأجور بحيث
تقوم هيئات من العمال أنفسهم بعمليات الانتاج والتوزيع ،
ويستأثرون بالأرباح دون الممولين .

تسربت أمثال هذه الآراء ولا تزال تتسرب إلى أذهان
العمال لأنهم يرون أمامهم صوراً مختلفة من طبقات الممولين الذين

يصلون إلى ذروة الثروة والمجد على أكتافهم بينما يظلون هم دائماً
أدوات بائسة تعمل جاهدة دون أمل لمجد طفيليات من الممولين .
ومما لا جدال فيه أن أمثال تلك الفروق بين الفقراء والاعنياء
كانت موجودة في العصور السابقة ، وإنا لنراها واضحة إذا ما قارنا
حالة العبد Serf بحالة البارون الاقطاعي Feudal Baron ، غير
أن الهوة بين الاثنين لم تبلغ من العمق والاتساع يوماً ما بلغت
بعد الثورة الصناعية بين الأجير وصاحب المصنع ذى الملايين ،
كما أن حياة العبد في القرية الزراعية لم تكن مظلمة تعسة كحياة
العامل في المصنع والمنجم ، فأن ذاك كان على الأقل يتمتع بالطبيعة
ويشعر في ذلك بشيء من المساواة بينه وبين سيده اللورد .
غير أن ذلك الصراع الشديد بين الرأسمالية والطبقة العاملة
وما صحبه من حوادث القسوة والظلم من الجانب الاول والثورة
والعنف من الجانب الثانى ، قد كان له أثره في إيجاد أنظمة جديدة
في الحياة الصناعية ، فقامت الحكومة بسن قوانين مختلفة
للمصانع Factory Acts تخول لمتدوبيها في أى وقت حق تفتيش
هذه المصانع للوقوف على حالتها الداخلية ، وكيفية معاملة أصحابها
للعمال ، وكتابة تقارير وافية عن العيوب التي يرونها وطرق علاجها
وبذلك بدأت رءوس الإصلاح الاجتماعى تظهر فوق دخان المصانع
الكثيف ، وبدأت مصالح العمال وشئونهم تشغل بال المفكرين

والمصلحين من رجال الامة أمثال بنثام Bentham وجلادستون
من بعده .

كذلك قام العمال من جانبهم بجهود جبارة لتكوين النقابات
التي تحمي مصالحهم الاجتماعية والاقتصادية ، وقد نجحوا في الحصول
على اعتراف رسمي بهذه النقابات . Trade Unions في سنة
١٨٧١ ، وهي تسعى إلى تحقيق الأغراض الآتية : -
(أولا) المساومة الجمعية على الأجور بدل المساومة الفردية
(ثانيا) وضع حد أدنى للأجور وحد أعلى لساعات
العمل اليومي .

(ثالثا) تسوية الخلافات التي تنشأ بين العمال وأصحاب
رءوس الأموال بالطرق السلمية والتحكيم .

Conciliation and Arbitration

(رابعا) المطالبة بتوفير أسباب الصحة والراحة والسلامة
في العمل .

(خامسا) المطالبة بالتأمين الاجتماعي ضد المرض والحوادث
وكبر السن والتعطل .

(سادسا) وضع التشريع الذي يكفل تنفيذ أغراض
نقابات العمال .

شُرور الصناعة

عرفنا الظروف التي أدت إلى قيام الصناعة بمعناها الحقيقي وظهر لنا ما صحب الصناعة من شرور اجتماعية نجملها فيما يأتي :
(أولا) هجر الناس القرى إلى المدن التي أصبحت تضيق بهم فتقاربت منازلها وضائق طرقاتها ، وحرمت الهواء وأشعة الشمس وخلت أغلبها من الحدائق والمتنزهات العامة ، وانتشر فيها دخان المصانع فكسا جدران المنازل بطبقات سوداء من الدخان حتى أصبحت الحياة فيها أشبه بمعيشة السجون ، وانتشرت الأمراض المعدية والحميات بين السكان البؤساء حتى كانت نسبة الوفيات في منشستر سنة ١٧٥٧ حسب تقدير دكتور پرسيفال Dr. Percival ١ : ٢٥ ، وفي ليفربول ١ : ٢٧ ، بينما كانت النسبة في بلدة مونتون Monton التي تبعد قليلا عن مانشستر ١ : ٦٨ وذلك لأنها بعيدة عن الجو الصناعي .

ولم يقتصر فساد الجو على المدن الصناعية نفسها ، بل كان دخان المصانع وقاذورات الصناعة تفسد الجو والقنوات المائية وتهلك النبات إلى مسافة أميال من كل ناحية .

تشغيل
الأطفال

(ثانيا) اندمج الأطفال في سلك الصناعة فأهمل تعليمهم وساءت صحتهم وكان نسلهم في المستقبل ضعيفا وقد دل

الاحصاء أثناء الحرب العظمى أن نصف العمال لا يصلحون
للخدمة العسكرية .

تشغيل النساء (ثالثا) ترك النساء منازلهن واشتغلن في الصناعة فنافسن
الرجال وسببن تعطل الكثير منهم كما نجم من تركهن للمنازل
وتمتعن بالحرية الواسعة وارتياذهن أما كن اللهو والحانات ،
تدهور الأخلاق من هذه الناحية ، بحيث لم يصبح للعفة تقدير
كبير في المدن الصناعية .

ظهور
الرأسماليين
(رابعا) ظهرت طبقة اجتماعية جديدة هي طبقة أصحاب
رؤوس الأموال ، فاستبدت بالعمال ، ولم يكن لها غاية إلا الحصول
على الربح ، وسلكت لذلك كل السبل مشروعة وغير مشروعة .
ظهور
مبادئ
الاشتراكية
(خامسا) نشأ عن وجود الغنى الهائل إلى جوار الفقر
المدقع امتلاء قلوب العمال بالحق والضعينة للعمولين ، وبدأت لهم
في صورة مجسمة سوات توزيع الثروة ذلك التوزيع غير العادل
Inequality of wealth فتسربت إليهم أفكار الاشتراكية
المتطرفة . ولجأوا في الكثير من الأحيان إلى الاضراب Strike
ووسائل العنف للحصول على مطالبهم . ولا يخفى ما في هذا من
الاضرار بالمصلحة العامة . ولنا في اضراب عمال باريس في
شهر يوليو سنة ١٩٣٦ مثل ذلك .

تفكك
روابط
الأسرة
(سادسا) نتج من كل هذا تفكك روابط الأسرة ،

وانعدام العطف بين الأفراد . ويلاحظ هذا بجلاء كل من زار
انجلترا ، إذ يرى أفراد الأسرة الواحدة منشورين في أما كن
مختلفة وأقطار متباعدة ، ولا يتردد الشاب أو الفتاة في ترك
منزل والديه بمجرد استطاعته الحصول على الرزق .

حسنة الصناعة

تعددت الشرور الاجتماعية في البيئة الصناعية إلى حد
جعلت البعض يطلق عليها اسم « المجتمع المريض » ، إلا أنها
لا تخلو من حسنات كادت تربو على سيئاتها . تلك الحسنات
التي تميز العصر المتمدين الحالي عما سبقه من عصور .

فأول ما قدمته الصناعة للإنسانية ، أنها أنتجت لعامة كثرة الانتاج
الشعب والفقراء من الناس كل ما يدخل في دقائق حياتهم
اليومية ، لأن من مظاهر الصناعة الحديثة بل من مستلزماتها
الانتاج بالجملة Large Scale Production ، الذي يتبعه في
أغلب الأحيان رخص أسعار السلع بحيث أصبح الفقير الآن
يتمتع بأشياء كثيرة لم يكن في مقدور أشرف القوم في العصور
المتوسطة أن ينالوها ، وقد نجم عن كثرة الانتاج من ناحية
وكثرة الاستهلاك من الناحية الأخرى زيادة ثروة الأمم
الصناعية ، ولا ننسى إذا ذكرنا الآن انجلترا وألمانيا والولايات

المتحدة أنها في مقدمة دول العالم ثروة ونفوذاً ، وما كان في
مقدورها أن تصل إلى هذه الذروة إلا باشتغالها بالصناعة والسعي
إلى ترويج منتجاتها الصناعية في أسواق العالم البعيدة .

والصناعة كانت ولا تزال أ كبر حافز على الابتكار
والاختراع . وها هي عيش العمال في البلدان الصناعية مضاءة
بالكهرباء ويرن بين جدرانها المتقاربة صوت المذيع ينقل إلى
فقراء القوم أخبار الأمم ، وها هي دور الخيالة مليئة كل ليلة
بروادها من الأغنياء والفقراء على السواء . هذه المخترعات وأمثالها
وليدة البيئات الصناعية ، ومن انتاج أفكار علمائها . غير أنها
للأسف سلاح ذو حدين قد يستعمل لخير البشرية كما قد يستخدم
في إهلاكا . وليس أدل على ذلك من أن علماء الكيمياء
الألمان كانوا يحولون قشور الاشجار المتساقطة إلى خبز يأكله
الناس أثناء الحرب العظمى . كما أن هؤلاء العلماء أنفسهم
أخرجوا للعالم الغازات الخائفة التي أفنت الجيوش وأهلكت المدن .

وتم حسنة أخرى أسدتها الصناعة إلى الهيئة الاجتماعية ،
تلك هي قضاؤها على نظام الطبقات الاجتماعية ، الذي كان
يضع الحواجز بين فئات الناس ، فيبقى العبد عبداً والعامل عاملاً
والسيد سيداً ، وهكذا كان ميلاد الانسان يشكل مصيره ، فقد
أدت الصناعة إلى السعي وراء المادة واعتبارها مقياس أهمية

الاختراع
والابتكار

القضاء على
نظام الطبقات

الفرد ، وبذلك أصبح في إمكان الصانع أن يصير سيدا إذا أعمل فكره وبذل مجهودا كافيا. وهذا فورد ملك السيارات قد بدأ حياته عاملا بسيطا لا يتميز عن غيره ، ثم ساقه الحظ إلى ما يتمتع به الآن من مركز اجتماعي يحسده عليه الأمراء .

وقد نتج من هذا التطور في النظام الاجتماعي أن أصبح الناس يقدرّون الأشخاص النابغين بغض النظر عن نشأتهم ، أمثال هتلر في ألمانيا ، وما ككونالد في إنجلترا وموسوليني في إيطاليا ، أولئك الناس الذين ما كان باستطاعتهم أن يثبتوا وجودهم أو يصلوا إلى مراكزهم العظيمة لو أنهم ظهروا في عصور ماضية سادت فيها الحواجز الاجتماعية بين الطبقات .

ومن أظهر مميزات البيئة الصناعية أيضا احترام الرأي العام وسرعة تكونه . لان الصناعة إنما تقوم على اكتاف عامة الشعب ، وهؤلاء قد تنبهوا إلى أهمية مركزهم ، فقاموا بحملات شعواء على الحكومات وأصحاب رؤوس الاموال في الدول المختلفة ، وكونوا لانفسهم اتحادات تعترضهم وتدافع عن مصالحهم ، فأجبروا الهيئات المسؤولة على الاعتراف بأهميتهم واحترامهم والسعى إلى المحافظة على حقوقهم . ولا أدل على احترام الطبقة المتوسطة والفقيرة في لندن من أن السيارات

احترام
الرأي العام

العامة والقاطرات الارضية كلها درجة واحدة ولا يتميز فيها
العظيم على الحقير .

حرية الرأي وكانت حرية الرأي الشخصى نتيجة مباشرة لاحترام الرأي
العام . وأن الداخل إلى حديقة هيد پارك فى وسط لندن ليدهش
للصراحة المتناهية التى يتناول بها الخطباء الموضوعات السياسية
والاجتماعية والدينية وغيرها . تلك الصراحة التى تعتبر فى بلاد
أخرى جريمة ترسل صاحبها الى السجن شهوراً وسنوات . فلا
عجب بعد كل هذا إذا نضج رأى العام وقويت المعارضة
الحقيقية فى مجالس النواب ، واصبحت الموضوعات الاجتماعية
الخطيرة التى تهتم الشعب تلقى من النقد البرى ما يصلحها
ويوجهها الى المصلحة العامة .

التربية وقد كان لو هن الرابطة العائلية أثرها الفعال فى التربية الاستقلالية
التى ينشأ عليها الأبناء منذ نعومة أظفارهم ، تلك التربية التى
تجعل من الشاب رجلاً كاملاً يعيش فى أية بقعة من الأرض معتمداً
على نفسه الاعتماد كله ، كما جعلت من الفتاة أم محترمة تلقن أبنائها
القومية الحققة وتنشئهم نشأة محترمة مستقلة . جلست مرة مع أم
إنجليزية وطفلها ، فأتى الولد هفوة من الهفوات الصغيرة التى قد
تمر بيننا دون ملاحظة ، ولكن تلك الأم الحازمة اليقظة أنبته
على فعلته هذه قائلة « ألا تخشى أن يقول ضيفنا هذا بعد رجوعه

إلى بلاده إن أطفال الانجليز تنقصهم التربية ؟ » وهذا مثل بسيط من أمثلة اعتزازهم بقوميتهم واحترامهم لبلادهم .

ولعل النجاح في الاستعمار من أكبر نتائج هذه التربية . فأنت ترى الرجل الانجليزى يهجر بلاده إلى أقصى بقاع الدنيا التى تختلف كل الاختلاف عن بلاده فى مناخها ومدنيتها وسرعان ما يكون له بيئة انجليزية محضة ، ويعيش عيشة رغدة ، ويوجه جهوده إلى خدمة بلاده وتوطيد مركزها ، وربما قضى حياته هو وذريته فى هذه البقعة راضيا قانعا مغتبطا بأنه إنما يعمل لخدمة بلاده . قال نلسون القائد الانجليزى البحرى :

« إن إنجلترا لترجو من كل إنجليزى أن يؤدي واجبه »

مركز المرأة فى البيئة الصناعية

قدمنا أن خروج المرأة إلى ميدان العمل كان أثرا من آثار الثورة الصناعية ، وقد أدى ذلك إلى ظهور شخصيتها وارتفاع مركزها فى الهيئة الاجتماعية . لأن المرأة إذا عملت وأمكنها الانفاق على نفسها ، بدأت تستقل عن الرجل . وتشعر بوجودها وتضطرب الرجل إلى الخفض من نفوذه ورقابته عليها ، وبذلك تنال من الحرية ما لا يمكن أن تناله أختها التى لم تخرج إلى ميدان العمل بصفة جدية ولا تزال تعتمد على الرجل فى الانفاق . ومن الطبيعى أن

المرأة إذا شعرت بأنها تقوم بأعمال الرجال على الوجه المرضي ،
وأنها تؤدي لبلادها نفس الخدمات ، قامت تطالب بنفس الحقوق
التي يتمتع بها الرجال ، ولذا نجد النساء في إنجلترا وفرنسا والولايات
المتحدة قد ألفن الجمعيات المختلفة للمطالبة بحقوقهن في وظائف
الحكومة ومجالس النواب والقضاء . وقد أمكنهن نيل كثير
من هذه المطالب ، وساعدهن على ذلك ما قن به أثناء الحرب
العظمى من أعمال شاقة أثبتن فيها جدارة وقمن بهادون تقصير ،
وقد تسربت مبادئ مساواة المرأة بالرجل من الدول الصناعية
إلى ما جاورها من الدول الأخرى ، وأصبح للنساء بها شأن كبير
أيضاً . والواقع أن الناظر إلى صور فتيات أسبانيا وهن يحملن
السلح للدفاع عن بلادهن كالرجال سواء بسواء ، لا يتردد في
الموافقة على إعطاء المرأة كل حقوقها التي هضمها الرجال طويلا
بدافع الأنانية .

غير أن الحرية الكاملة التي يتمتع بها النساء في البيئات
الصناعية ، واعتبارهن مسئولات عن أنفسهن ، وانعدام الرقابة
المنزلية عليهن كان له أثره في انحلال العفة عندهن ، وقد قلت
انحلال العفة ، ولم أقل انحلال الاخلاق لأن فتيات الأنجليز
يتمتعن بخلق عال في نواح أخرى أهمها الانتصار لقوميتهم
وتقدير الواجب حق قدره .

وللقوم فلسفة خاصة يفسرون بها هذا النوع من الاباحية ،
إذ يقولون ألا ضرر مطلقاً من تمتع الفتاة بكل الحرية التي يتمتع
بها الشاب ، ما دام الاثنان يقومان بنفس العمل ، ومادام يؤديان
الواجب عليهما حق الأداء . غير أننا بتقريرنا لهذه الحقائق
الواقعة لا نتصر لها ، لان التقاليد الشرقية المتغلغلة في نفوسنا
لا تسمح لنا بذلك ، غير أننا نقول إن البيئات الشرقية لا تخلو
من بعض هذا النوع من الانحلال ، ولكنه انحلال مستتر ، ربما
كان أخطر من الأول وأعظم أثراً وأسوأ عاقبة .

وقد انعكست الحرية التي تتمتع بها المرأة الانجليزية في
أبنائها فألفوها وشبوا عليها وقدروها تقديراً كاملاً و تمتعوا بها
فكونوا في النهاية شعباً حراً عظيماً .

الباب السادس

الأقاليم المناخية

Climatic Regions

الأقاليم المناخية

ينقسم العالم من الوجهة المناخية إلى أقاليم عدة ، لكل منها مميزات خاصة من حيث الظواهر المناخية والنبات والحيوان ، وهى التى بدورها تشكل حياة الانسان فى كل إقليم وتسيره فى اتجاه خاص يلائم البيئة التى يعيش فيها . وهذه الأقاليم المناخية هى :-

- | | |
|----------------------------|---|
| | ١ - المناخ الاستوائى الحار الرطب |
| فى البلاد الحارة | ٢ - المناخ « السودانى » |
| Hot lands | ٣ - المناخ الموسمى |
| | ٤ - مناخ الصحراوات الحارة |
| فى البلاد المعتدلة الدافئة | ٥ - مناخ البحر الأبيض |
| Warm Temperate Lands | ٦ - المناخ المعتدل الدافئ البحرى (الصينى) |
| فى البلاد المعتدلة | ٧ - المناخ المعتدل البارد البحرى |
| « الباردة » نوعا | ٨ - المناخ القارى |
| Cool Temperate Lands | ٩ - المناخ اللورنسى |
| فى البلاد الباردة | ١٠ - المناخ البارد |
| Cold Lands | ١١ - المناخ القطبى أو الصحراوات الباردة |

(١)

الاستوائي

The Equatorial Climate

مناخ الغابات الحارة الرطبة دائمة الخضرة (السلفاس)

المناخ

يوجد هذا النوع من المناخ في المنطقة المحدودة بخط عرض ٥ شمالاً وجنوباً من خط الاستواء ، والحرارة فيها مرتفعة غير متغيرة كثيراً طوال السنة ويتراوح متوسطها بين ٧٨ ° ، ٨٠ ° ف . كذلك تسقط الأمطار طول السنة نظراً لشدة الحرارة وما يتبعها من كثرة البخر والتصعيد والتكاثف Convictional Rain ، غير أنها تكثر في الاعتدالين الربيعي والخريفي .

ومن الأمثلة الدقيقة لهذا المناخ حوض الكونغو في أفريقية وحوض الأمازون في أمريكا الجنوبية - ويتمثل أيضاً في جزائر الهند الشرقية والغربية وغانة الجديدة

النبات

يكثر النبات في هذه المنطقة لكثرة الرطوبة والحرارة ، ولذا تشترك أغصان الأشجار وتلتف النباتات المتسلقة woody climbers

حول الاشجار الصخمة للوصول إلى الضوء الذي قلما ينفذ الى
جوف الغابة ، وأخشاب الاشجار الاستوائية صلبة كثيرة الانواع
وأهمها الماهوجانى Mahogany والابنوس Ebony

ولا يخفى أن الغابات الاستوائية موطن شجر المطاط الذى يعتبر
جمعه من أهم مهن السكان فى تلك الانحاء وقد تنبه الناس لأهميته
فزرعوه فى مزارع خاصة واعتنوا به ليزيدوا إنتاجه كما فى سيلان
والملايو وجزائر الهند الشرقية .

ويكثر أيضاً فى هذه الغابات شجر الكينا والكاكو والمانيوك
وجوز الهند كما تشتهر أفريقيا واشجار زيت النخيل .

الحيوان

ولا يختلف الحيوان عن النبات فى حاجة كل إلى الضوء والهواء
ولذا امتاز حيوان هذه المنطقة بالتسلق كالقردة ، كما تكثر الطيور
والزواحف والحشرات .

الانسان

من الصعب على الانسان أن يشتغل بالزراعة فى الغابات
الاستوائية ، ولذا اقتصر تقريباً على جمع الثمار وصيد الحيوان .
وليست له حاجة إلى ارتداء الملابس لشدة الحرارة ، كما أن مسكنه
فى الغالب من الاخشاب وأوراق الاشجار وهو خامل لشدة الحرارة
والرطوبة متأخر لا يفكر فى غده لتشابه أيام السنة ولا يعمل للحصول
على رزقه لتوفر غذائه

(٢)

المناخ السوداني

(السفانا)

المناخ

يوجد هذا النوع من المناخ شمال وجنوب خط الاستواء بين خطي عرض ١٠° و ٢٠° تقريباً ويكثر مطره في الصيف بعد تعامد الشمس بقليل ويعقب ذلك فصل جفاف طويل في الشتاء ويتمثل هذا المناخ في السودان بأفريقيا وحوض الأورينوكو بأمريكا الجنوبية .

النبات

تنمو في هذه الجهات الحشائش الطويلة التي تتخللها الأشجار ، في فصل المطر فاذا ما جاء الفصل الجاف ذبلت الحشائش ، ويحدث هذا في الشتاء وأوائل الصيف قبل سقوط المطر .

الحيوان

تكثر في السفانا الحيوانات سريعة العدو آكلة العشب كالزراف والغزال ، وآكلة اللحم كالأسد والنمر ، وقد زودت الطبيعة النوع الأول من الحيوان بسرعة العدو تمكنه من الهرب من

عدوه في جهات كهذه مكشوفة لا تكثر بها المخابىء . وقد امتاز
أيضا بمقدرته على الاجترار لأنه في غالب الأحيان يزدرد طعامه
ازدراداً خوفاً من مطارديه ، فاذا ما أمن على نفسه أخرج الطعام
مرة أخرى ليمضغه ويتلذذ به .

الانسان

ولتوفر الحيوان في هذه المنطقة اشتغل الانسان بصيده
أولاً ثم برعيه ولذا كان أغلب سكان هذه البلاد من الرعاة ، وهم
أكثر استقراراً من سكان الغابات الاستوائية ولذا كانوا
أكثر تقدماً .

(٣)

المناخ الموسمي

The Monsoon Climate

المناخ

لا يختلف مناخ هذا الاقليم كثيراً عن سابقه ، غير أن أمطاره
أغزر وتسببها الرياح الموسمية . ويستمر فصل الحرارة في الاقليم
الموسمي شمال خط الاستواء من مارس إلى يونية ، ثم يبدأ المطر من
يونية ويستمر إلى اكتوبر ، ولولا هذا لكانت الحرارة أشد
قسوة . ويعقب هذا فصل الجفاف الشتوي من نوفمبر إلى فبراير .

ويتمثل هذا المناخ في شواطئ المحيط الهندي كالهند وبرما وشمال
غرب أستراليا وكذلك في الحبشة

النبات

تنمو في هذا الاقليم الغابات الموسمية ، وهي أقل كثافة من
الغابات الاستوائية ، وتتجدد أشجارها من أوراقها في فصل الصيف
الجاف حتى لا يتبخر ما امتصته من ماء في الفصل المطير ، وبهذا
تقاوم فترة الجفاف من مارس إلى يونية ، وتكثر أشجار الفاكهة
كالمango والموز ، وأشجار الخيزران والنخيل والتيك والسال .
والظروف المناخية هناك ملائمة للزراعة ولذا يكثر الأرز في دالات
الأنهار والحبوب الزيتية في الجهات الجافة نوعا ، كذلك يزرع
الشاي والبن على سفوح الجبال كما يزرع القطن والذرة .

الانسان

ولامكان الزراعة اشتغل الانسان في الجهات الموسمية منذ القدم
بهذه المهنة . ولذا نجد هذه الجهات شديدة الازدحام بالسكان
خصوصا في أحواض الأنهار ، وكان من جراء اشتغال الانسان
بالزراعة منذ آلاف السنين نشوء مدينت قديمة قوامها استغلال
الأرض كالصين وقد سبق دراستها .

(٤)

مناخ الصحراوات الحارة

The Hot Desert Climate

المناخ

يقع هذا النوع من المناخ في المنطقتين المداريتين شمال خط الاستواء وجنوبه وهي جهات شديدة الضغط ، تهب منها الرياح العكسية تجاه القطبين، والرياح التجارية إلى خط الاستواء وبذلك قلما تتعرض لرياح مطيرة . ولعدم وجود السحب في السماء ، تتعرض هذه الجهات لأشعة الشمس المحرقة خصوصا وقت تعامدها ، وبذلك تشتد الحرارة جدا أثناء النهار ، وللسبب نفسه يكثر الاشعاع أثناء الليل فتفقد الأرض حرارتها ، وبذلك يكون الفرق اليومي أو مدى الحرارة اليومي Diurnal Range كبيرا .

ويمكن تقسيم هذه الصحراوات إلى قسمين :

- ١ — الصحراوات الحارة التي تشغل الأقاليم المنخفضة حول المدارين كالصحراء الكبرى وصحراء العرب في نصف الكرة الشمالي وصحراء كلها ري وأتا كلما في نصف الكرة الجنوبي

٢ — الصحرات المعتدلة التي تشغل الهضاب خارج المدارين
وهي أكثر برودة من الأولى في الشتاء وقد يغطيها
الجليد . وأمثلتها إيران وصحراء جوبي أو شامو في آسيا
وصحراء كولورادو في أمريكا الشمالية

النبات

يندر وجود النباتات والحشائش في الصحراوات الحارة لندرة
المطر بل لانعدامه . وقد زودت الطبيعة أمثال تلك النباتات
بوسائل مختلفة لمقاومة الجفاف ، فمنها ما تمتد جذوره إلى الماء
الباطني ، ومنها ما يخزن الماء في أوراقه السميكة ، ومنها ما يحيط
جزوعه وأوراقه بطبقة شمعية .

غير أن هذه البقاع الصحراوية قد تشمل الكثير من
الواحات الخصبة التي ترويه عيون الماء ، وبذا تسهل زراعة
النخيل وبيض أشجار الفواكه .

ويمتاز حيوان هذه المنطقة بالقدرة على تحمل العطش والسير
على الرمال دون أن تغوص أرجله ، ويكاد لونه يشابه لون الصحراء
وأهمه الجمل .

الانسان

ويعيش إنسان هذه الجهات عيشة بدوية ، فينتقل بقطعانه
من الابل والماعز من جهة إلى جهة وراء الكلاً ويعيش عيشة

مستقرة في الواحات ، يشتغل بالزراعة والرعي .
وقد ساعدت سماؤهم الصافية وكثرة أوقات فراغهم على نبوغ
الكثيرين منهم في علم الفلك .
ويسكن الرحل في خيام من وبر الحيوان ، أما سكان الواحات
فيعيشون في منازل دائمة من الحجر أو الطوب

(٥)

مناخ البحر الأبيض

Mediterranean Climate

المناخ

يوجد هذا المناخ في المنطقة المحدودة بخط عرض ٣٠° ٤٠° تقريبا
شمال خط الاستواء وجنوبه في غرب القارات ، وتتعرض في الصيف
لرياح التجارية الجافة ، وفي الشتاء للرياح العكسية المطيرة ، ولذا
كان مطره شتاء . ويتشمل هذا المناخ في حوض البحر الأبيض
المتوسط وفي شمال كاليفورنيا ووسط شيلي وأقليم الكاب وجنوب
أستراليا .

النبات

يكثر نمو النبات في فصل الشتاء المطير ، ويقاوم الجفاف بشق
الوسائل في فصل الصيف ، فبعض أنواع النبات كأشجار الزيتون

لها أوراق مغطاة بشعر حريرى يقيها الجفاف ، وبعضها كالكروم
لها جذور طويلة تصل إلى الماء الباطنى . وتكثر فى هذه الجهات
الفواكه كالبرتقال والكهثرى والليمون والعنب الذى يصنع منه
النبيذ .

الانسان

ولقد ساعد اعتدال مناخ إقليم البحر الأبيض على نشوء مدنيات
قديمة كمدينة الأغريق والرومان ، غير أنه يساعد على الكسل فى
الوقت نفسه وبذلك لم يحافظ هؤلاء الأقوام على مدنيّتهم طويلا
بل انتقلت إلى غرب أوروبا . ومن الملاحظ أن سكان هذا الإقليم
سريعو الرضا ويقنعون بالقليل وهذا لا يساعد على التقدم والتفوق .
ويسكن الناس فى هذا الإقليم فى منازل ذات حوائط سميكّة
تقيهم حرارة الصيف ، ويقضون أغلب أوقاتهم فى الخارج (فى
شرفات المنازل أو المقاهى) .

(٦)

المناخ المعتدل الدافئ البحرى (الصينى)

Warm Temperate Oceanic Climate

المناخ

يوجد هذا النوع من المناخ فى شرق القارات فى المنطقة الواقعة

شمال مدار السرطان وجنوب مدار الجدى بين خطى عرض 30° ،
 40° . ويتميز بصيفه الدافئ المطير وشتائه الجاف البارد نوعا .
ويتمثل فى الصين وشرق استراليا وجنوب شرق الولايات المتحدة
وساحل ناتال فى أفريقيا .

النبات

تنمو بهذا الاقليم غابات شبيهة بالغابات الموسمية ويزرع به
الذرة والأرز .

الانسان

تزدحم هذه الجهات بالسكان ويشغلون بالزراعة مثل الصين
وجنوب شرق الولايات المتحدة .

المناخ المعتدل البارد البحرى

Cool Temperate Oceanic Climate

المناخ

يوجد هذا النوع من المناخ فى شمال غرب أوروبا وغرب
كندا وجنوب شيلي وتسمانيا ونيوزيلاند . ويتميز بهبوب الرياح
العكسية عليه طول السنة ، ومطره دائم وهو ذو شتاء محتمل البرودة
وصيف معتدل .

النبات

تنمو بهذا الاقليم الغابات النفضية التي تتجرد من أوراقها في فصل الشتاء Deciduous Forests ، وأهم أخشابها البلوط Oak والدردار Elm والبشولا Birch . وقد اجتثت هذه الغابات من الكثير من البلاد لاستخدام الأرض في الزراعة والرعى ، وأهم الغلات الزراعية الشوفان والشيلم والشعير ويزرع القمح في بعض الجهات غنية التربة . وتربى الأغنام بكثرة على سفوح التلال الجافة . وقد ساعد هذا على شهرة هذا الاقليم بمنتجات الألبان Dairy Broduce

الانسان

يساعد هذا المناخ على النشاط والعمل ، إذ لاتصل الحرارة في الصيف إلى درجة تسبب الكسل والخبول ، كما أن برودة الشتاء تستلزم العمل للتدفئة ، وبذلك تركزت المدنية الحالية في شعوب شمال أوروبا . بعد أن كانت في حوض البحر الابيض قديما .

(٨)

المناخ القارى

Temperate Continental Climate

المناخ

يتميز هذا المناخ بتطرفه أى بارتفاع حرارته صيفا وانخفاضها شتاء ، وذلك لوقوعه داخل القارات بعيدا عن البحار ، وتسقط أمطاره

القليلة في الربيع وأوائل الصيف ، حين تتوغل الرياح العكسية إليه خلفه الضغط . ويتمثل هذا النوع من المناخ في إقليم البريري في وسط كندا The Prairies وسهوب جنوب روسيا وجنوب سيبيريا . The Steppes .

النبات والحيوان

تنمو في هذا الاقليم الحشائش القصيرة في فصل الربيع وتذبل في فصل الصيف حين تشتد الحرارة . ويكثر فيه الحيوان سريع العدو كالخيل وآكل العشب كالأغنام .

الانسان

وسكان هذا الاقليم من الرحل الذين ينتقلون بقطعانهم وراء الكملأ ، وأهم حيوان لديهم هو الحصان ، ولذا كانوا مهرة في ركوب الخيل وقد كان لغزوات هؤلاء الرعاة أثر عظيم في التاريخ كما بينا سابقاً .

(٩)

المناخ اللورنسي

The Laurentian Climate

المناخ

يوجد هذا النوع من المناخ في شرق القارات الشمالية في العروض

المقابلة لاقليم غرب أوروبا (٤٠ - ٦٠) ولذا كان شتاؤه أكثر برودة بحيث تتجمد مياه بعض موانيه كمنتريال ، كما أن صيفه أكثر حرارة . ولاتصل اليه الرياح العكسية مطلقا . ويتمثل في اقليم نهر سنت لورنس والبحيرات المظمية وإقليم نيوانجلند في الولايات المتحدة .

النبات والانسان

تنمو به الغابات النفضية كاقليم غرب أوروبا . ويساعد هذا المناخ على النشاط والعمل كمناخ غرب أوروبا ولذا كان الانسان في هذا الاقليم شبيها بالاقليم السابق من حيث تقدمه ورقيه ، ولنا في اليابان مثل لذلك .

- ١٠ -

المناخ البارد

The Cold Temperate Climate

المناخ

يوجد هذا النوع من المناخ في أطراف القارات الشمالية (أوراسيا وأمريكا الشمالية) وفي الجنوب الأقصى لأمريكا الجنوبية وعلى مرتفعات نيوزيلند .

ودرجة الحرارة في هذا الاقليم منخفضة بوجه عام ، ولا يزيد

متوسطها السنوى عن ٤٠° ف ، وكثير من جهات هذا الاقليم يقل
متوسطها عن درجة التجمد . والصيف فيه قصير قلما ترتفع حرارته
أكثر من ٧٠° ف ، وأغلب الأمطار هناك ثلجية تتراكم على الارض
طوال فصل الشتاء ، فاذا جاء الصيف ذابت الثلوج وتحولت الارض
إلى مستنقعات ، ويتمثل هذا النوع من المناخ فى أركنجل
ولنجراد فى روسيا وفر كويانسك فى سيبيريا

النبات والحيوان

تسود هذا الاقليم الغابات الصنوبرية Coniferous Forests
ذات الاوراق الابرية السميكة ، وهى مورد الاخشاب اللينة فى العالم
كالصنوبر والشربين ، وأهم جهاتها غابات كندا وروسيا واسكنديناوه .
أما شمال آسيا فبالرغم من كثرة غاباته فان صعوبة المواصلات وتجمد
المجارى السفلى لانهاره لم تساعد على شهرة هذا الاقليم بتصدير
الاخشاب إلى العالم المتمدن .

وقد زودت الطبيعة حيوان هذا الاقليم كالدب القطبى والثعلب
القطبى والذئب القطبى بفراء كثيف يحميه من البرد ، وقد أصبح
لهذا الفراء أهمية خاصة فى التجارة الدولية لندرته وصعوبة الحصول
عليه مما أدى إلى ارتفاع ثمنه فى الاسواق .

الانسان

لم تكن هذه الغابات تصلح لمعيشة الانسان بصفة دائمة ،

ولذا فان سكانها كانوا من القبائل التي تعيش على أطرافها الشمالية ، ولا يؤمنونها إلا في فصل الشتاء طلبا للتخطيط وصيد الحيوان ذى الفراء ، ويهجرونها إذا أقبل الصيف وأصبحت الغابات كثيرة المستنقعات . أما الآن وقد انتشرت المدنية وتمكن الانسان في هذه البقاع من الزراعة كلما سمحت ظروف التربة كما في جنوب السويد ، فقد أصبح في مقدوره استغلال هذه الغابات وأصبحت صناعة قطع الاخشاب وعمل الورق من الصناعات الرائجة في السويد وكندا « أتاوة » - وأصبح العالم يعتمد في الحصول على حاجته من الاخشاب اللينة على هذه البقاع .

وموسم العمل في قطع الاخشاب هو فصل الشتاء ، إذ تغطي الارض بالجليد فيسهل على القوم التوغل داخل الغابات على زحافاتهم . وعندئذ تقطع الاشجار قطعاً صغيرة أو كبيرة حسب الطلب ، ثم تجرها الوعول إلى مجارى الانهار المتجمدة ، وتترك هناك حتى ينوب الجليد ، فتحمل كتل الاخشاب إلى المرافىء الهامة وأما كن الصناعة التي تقوم عادة عند مساقط المياه حيث تولد الكهرباء .

ويتميز سكان هذه الاصقاع الباردة بنشاطهم وحبهم للعمل وميلهم للالعاب الرياضية وأهمها الانزلاق على الثلج الذي يستلزم حفظ التوازن ، ولذا مهر السويديون في فن الرقص . كما أن طول فصل الشتاء جعل القوم ذوى صبر شديد وشغف بالقراءة والاطلاع .

(١١)

الصحروات الباردة

The Cold Desert Climate

المناخ

يوجد هذا النوع من المناخ بين الدائرة القطبية والقطب .
وشتاء هذا الاقليم طويل بارد وصيفه قصير جدا لا ترتفع فيه الشمس
عن الأفق كثيرا ، ويغطيه الجليد ثلاثة أرباع السنة .

النبات والحيوان

لا تنمو به إلا الطحالب والاعشاب القصيرة في فصل الصيف
القصير ، وأهم حيوانه غزال الرنة والكاريبو وعجل البحر .

الانسان

يعيش الانسان في هذه الجهات على صيد الحيوانات البحرية
كعجل البحر والبرية كالرنة والكاريبو . وهو متأخر ، لفقرا الطبيعة
وقسوتها . ويعيش في جماعات صغيرة دائمة التنقل ، كالاسكيمو في
شمال آسيا واليوكاغير في شمال شرق سيبيريا .

مطبوعات مكتبة النهضة المصرية

١٥ شارع المدايق - تليفون ٥١٣٩٤

أسماء الكتب

٤٠٠	للدكتور حافظ عفيفى باشا	الانجليز فى بلادهم
١٠٠	للدكتور طه حسين بك	أديب
١٠٠	» » » »	حافظ وشوقى
٨٠	للر حوم أحمد شوقى بك	الشوقيات الجزء الثالث
٥٠	للاستاذ حسين عفيف الحامى	مناجاة
٥٠	» » » »	وحيد
٨٠		جولة فى ربوع أوروبا
٨٠		» » آسيا
٨٠	للاستاذ محمد ثابت	» » إفريقيا
٨٠		» » الشرق الأدنى
٨٠		» » الأمريكتين
٦٠	للدكتور سعيد عبده	الجمعة اليتيمة
١٥٠	للاستاذ ابراهيم رمزى	باب القمر
١٠٠	يوسف تادرس	نابليون
١٠٠	للاستاذ توفيق الحكيم	عودة الروح (جزءان)
٢٥٠	» » » »	محمد
٢٠٠	للانسة بسيمة زكى	المطبخ الشرقى
١٠٠	» » » »	دائرة المعارف المنزلية الحديث
٦٠	للاستاذ فهم حبشى	مداعبات عفريت
١٠٠	محمد شوكت التونى	جهاد الأمم فى سبيل الدستور
	اسماعيل مظهر	فلسفة اللذة والآلم
٢٠٠	محمد حافظ عبد الرحمن	مبادئ المحاسبة وإمساك الدفاتر

٢٥٠	ملي	للدكتور فؤاد صروف	فتوحات العلم الحديث
٢٥٠	»	»	أساطين العلم الحديث
٤٥٠	»	يوسف عبد العزيز حموده	الأمراض التناسلية
٢٥٠	»	أحمد خليل عبد الخالق	رعاية الطفل
٥٠	»	للرحوم محمد عبد الرحيم تره	كلية ودمنة بالصور
٢٠٠	»	للاستاذ عباس محمود العقاد	سعد زغلول
١٠٠	»	أحمد بدر خان	السينما
٣٠٠	»	أحمد وافي	علم الدولة جزء أول
٣٠٠	»	»	» ثان
٣٠٠	»	»	» ثالث
٤٠٠	»	»	» رابع
٨٠	»	نظمي خليل	بيرون

m/m

PROGRESSIVE ENGLISH EXER. B.1	by	WEAR & KHAKI	20
«	«	B.2 «	25
«	«	B.3 «	30
«	«	B.4 «	40
«	«	B.5 «	45
«	«	B.6 «	50

COMPLETE SUMMARY of TALE
of CITIES « E. JOYCE 50

MEDICAL PROCEDURES

COPER. & DIAGNOSIS by D^r MOH. IBRAHIM P. Cver 150
& « PAUL GALIOUNGUI Leather 200

LIVRET de CONJUGAISON FR.

avec la TRADUCTION des VERBES

en ARABE by D^r AURELE GRABER

LAWIS OVIDE

HASSAN KAMAL

100

